المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الألغاز في الرسائل المعماة
بين الإنشاء والتأويل - مقاربة بلاغية

The Rhetoric of Ellipsis
in Blinding Letters- A Rhetorical Approach

بقلم الدكتور

النوراني عبد الكريم كبور جبير

أستاذ البلاغة والنقد - قسم اللغة العربية وآدابها
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعيّة - جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

الجزء الأول (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الألغاز في الرسائل المعماة بين الإنشاء والتأويل - مقاربة بلاغية

النوراني عبد الكريم كبور جبير

قسم البلاغة والنقد - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعيّة - جامعة القصيم ـ المملكة العربية السعودية .

البريد الإلكتروني : kabourn@yahoo.com

الملخص

ابتكر العرب في الماضي طرائق للتواصل استجابة لظروف دعتهم إلى اتباع أساليب غير تقليدية في إيصال الخطاب. وتعدّ الرسائل المعمّاة هي إحدى الوسائل التي كان لها دورها في إنجاز الخطاب في مقامات تواصليّة عديدة. وقد قامت هذه الرسائل(١)على البلاغة في إنشائها وعلى التذوُّق البلاغي في تأويلها، فكان المنهج الاستقرائي والتحليل البلاغي أنسب المناهج لهذه المقاربة وإبراز جماليات هذا النوع من الرسائل. وقد توصّلت الدراسة لبعض النتائج منها: إنّ دور المتلقّي أساس في هذه الرّسائل، فهو الذي يناط به كشف غموضها، وإعادة بنائها في صورتها التي أرادها المُرسِل. وأنّ المعاني التي يصل إليها المتلقّي لا تنتج عن القراءة أو التحليل شأن نظريات جماليات التلقّي الحديثة، بل إنّ المتلقّي المؤوِّل يبحث عن معنى مخفيّ سلفاً في النّص، ويسعى إلى كشفه عن طريق ربط الدّلالات الرمزيّة ربطاً منطقيّاً. وقد قسّم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، وقد تناولتْ المقدمة الوظائف البلاغية، ودور المتلقي والخيال، والموروث الثقافي في هذا اللون من الرسائل، وتناول المبحث الأول عناصر التعمية، وتناول المبحث الثاني خصص للدراسة التطبيقية، وتضمنت الخاتمة أهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: النص، بلاغة، مُرسِل، متلقّي، مؤوِل .

(١) ذكر ابن منظور أن الإرسال يعني التوجيه، والاسم الرِّسالة أو الرَّسالة. ثم تطور مفهومها وانطلق من المجال اللغوي ليدل على كل كلام يراسل به من بعيد. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت ــ لبنان، بدون تاريخ، ج١١، مادة (رسل). وانظر: أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب: البرهان في وجوه البيان، بغداد: مطبعة المعاني، سنة ١٩٦٧م، ص١٩٣.

The Rhetoric of Ellipsis in Blinding Letters. A Rhetorical Approach

Al-Nourani Abdel-Karim Kabour Jubeir

Department of Rhetoric and Criticism - Department of Arabic Language and Literature - College of Arabic Language and Social Studies - Qassim University - Kingdom of Saudi Arabia.

Email: kabourn@yahoo.com

Abstract

In the past, Arabs created ways of communicating in response to circumstances that let them use unconventional methods of communicating the discourse. The Blinding Letters are one of the means that played a role in accomplishing the discourse in many communicative situations. And because these letters are based on rhetoric in its composition and interpretation, the inductive method and rhetorical analysis are the most appropriate methods for this approach and to highlight the aesthetics of this type of letters .

The study has reached some significant conclusions, such as the fundamental role of the receiver in revealing the ambiguity of Blinding Letters and rebuilding them in the image that the sender required. And that the meanings reached by the recipient do not result from reading or analysis like modern theories of reception aesthetics. Rather, the interpreter searches for a meaning previously hidden in the text, and seeks to reveal it by logically linking the symbolic connotations.

The study is divided into an introduction, two sections, and a conclusion. The introduction deals with the rhetorical functions, the role of the recipient and the imagination, and the cultural heritage in this type of letters. The first section deals with the elements of Blinding, and the second one is devoted to the applied study. Finally, the study is concluded with the most important outcomes.

Keywords: Text, Rhetoric, Sender, Receiver, Interpreter .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إنَّ مساءلة النّصوص القديمة وقراءتها في ضوء المناهج الحديثة لهو دور أُنيطت به الدّراسات المعاصرة التي من أولوياتها تفعيل النصوص التراثيّة التي لا تموت، ولا تحدّها الحواجز الزمنيّة، بل هي نصوص قادرة على الحياة، والتعاطي مع كلّ جديد، وأن تؤتي أكلها كلّ حين. ومن هنا تتّضح قيمة هذا التراث وأهميّة النّظر إلى ذخائره، ومقاربته وفق المقاربات النقديّة الحديثة مع اختلاف الممارسات والاجتهادات.

وبالنّظر إلى الرسائل المُعمَّاة نجدها تحوي رصيداً غنيّاً من العناصر البلاغيّة المتنوّعة؛ منها البيّنُ ومنها المضمر، مما شكّل ظاهرة يمكن إخضاعها للدراسة باعتبار تلك الرسائل منطلقاً لها، والمرسل والمتلقّي امتداداً لها.

وبما أنّ هذه الرسائل المُعمَّاة ترتبط بالاتّجاه التأويليّ في سياق تاريخيّ محدّد، وترتبط بآليات لغويّة فنيّة، وغير لغويّة، فهي مختلفة الصيغ والأساليب، إلا أنّها تسبح في الفضاء العربي الفسيح الذي ترعرعت فيه البلاغة العربية المعياريّة، وهنا نلتقي مع نظريّة النّص المُتخيَّل[١]؛ فدلالة الرسالة المُعمَّاة وخطابها الخفي لا تؤدّيهما الألفاظ بظواهر معانيها "ما دامت الدّلالة لا تنجلي من خلال الكلمات، وما دام مسلسل القراءة لا يمكن أن يُتصوّر في مطابقة العلامات اللسانيّة المعزولة؛ فإنّ المجموعات الشكليّة هي

(١) مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه، وديتر فيهفيجر، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، (ط١)، سنة ١٤١٩هـ، ص ١٦٩.

التي تجعل فهم النّص ممكناً"[1] فالتأويل في الرسائل المُعمَّاة تعتمد على العلامات والصّور البلاغيّة المخفيّة، إلى جانب مقدرة المتلقّي في تصوُّره للمعاني المضمرة خلف اللغة والعناصر السياقيّة.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في الآتي: ما الوظائف البلاغية في الرسائل المعمَّاة؟ ما دور المتلقّين وما دور الموروث الثقافي في تأويل الرسائل المعمَّاة؟ ما أثر الخيال في تشكيل المعنى في الرسائل المعمَّاة؟ ما هي عناصر التعمية التي يعتمد عليها المرسل؟

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى: بيان الوظائف البلاغية في الرسائل المعمَّاة، والتعرّف على دور المتلقّي ودور الموروث الثقافي في تأويل الرسالة المعمَّاة، ودراسة أثر الخيال في تشكيل المعنى في الرسالة المعماة، ورصد عناصر التعمية.

منهج الدراسة:

اتبعت هذه الدراسة المنهج الاستقرائي، والتحليل البلاغي في عرض النصوص ودراستها، ومناقشتها، ثم استخلاص النتائج.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة في توظيف البلاغة العربية في مقاربة نصوص رسائل تراثية تجلّت فيها مهارة المُرسِل ومهارة المتلقّي في تفكيك

---

(١) وضعية القارئ، الفن الجزئي والتأويل الكلّي، فولفغانغ أيزر، دراسات سال، العدد ٧٠، ص٧٩.

شفرات الرسالة والوقوف على مقاصدها، وتسليط الضوء على الوظائف البلاغية، وأثر الموروث الثقافي وفطنة المتلقّي في تشكيل هذه الرسائل.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسة سابقة تجمع شتات هذا الموضوع في بحث مستقل أو في رسالة جامعية.

تقسيمات البحث:

قسمتُ هذه الدراسة إلى مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد، وتعقبهما خاتمة ونتائج، وذلك على النحو التالي:

مقدمة: تناولتُ مشكلة البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهميته، والدراسات السابقة، وتقسيماته.

تمهيد: تناولتُ فيه الوظائف البلاغيّة، ودور المتلقّي المؤوِّل للرّسالة المُعمَّاة ودور الخيال والموروث الثقافي.

المبحث الأول: عناصر التعمية.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية.

خاتمة ونتائج.

تمهيد

مفهوم الرسائل المعمّاة:

التعمية في اللغة من قولهم: عمّى عليه الكلام: إذا أخفاه ولبّسه وجعله غير واضح، يصعب فهمه وإدراكه، وعمّى كلامه: جعله غامضاً[1]، وينطلق المعنى الاصطلاحي من الدلالة اللغوية؛ فالرسائل المعمّاة في اصطلاح الباحث هي: عبارة عن نصوص لغوية أو غير لغوية – سياقيّة – أُنشئتْ في ظروف خاصة قضت بعدم الإفصاح عنها، فأضفى عليها المنشئ قدراً من السريّة، وتعتمد على فطنة المتلقّي في فكّ رموزها المشفّرة، وإعادة تشكيل النص كما أراده المرسل.

والكتابة المعمّاة قديمة؛ ظهرت في عصور متقدمة فقد وُجدت في النقوش القديمة على جدار المعابد والمدافن؛ وقد نجح المؤولون في العصور اللاحقة في فكّ رموزها على الرغم من بُعد المدى الزمني واختلاف الثقافات واللغات والحضارة.

والرسائل المعمّاة لم تكن كثيرة شائعة؛ فقد وُجدت في العصر الجاهلي التي اعتمدت بشكل كبير على العناصر السياقية والرسائل الشفهيّة نظراً لتفشّي الأميّة، وساعد في نجاحها شدّة ارتباط الفرد بالبيئة وعناصرها لدورها في تشكيل حياتهم وثقافتهم ومعارفهم، واعتمادهم عليها حلّهم وترحالهم، وفي العصور اللاحقة (الأموي والعباسي) فقد اعتمدت بشكل أساس على الوصايا الشفهية، قليل من المكتوبة.

---

(١) معجم المعاني، الشبكة العنكبوتية، مدة (عمّى).

الوظائف البلاغيّة في الرسائل المُعمَّاة:

المعاني البلاغيّة هي معانٍ تصويريّة، تُدرك بالحدس، وبالنّظرة العقليّة، وتؤدّي الخبرة، وسعة الفكر، ودقّة الحس فيها دوراً ريادياً في إدراك المعاني، وتصوُّر الدلالات المبثوثة في النّص.

وفي هذا النّوع من الرسائل تكون الرّغبة في الإبهام مبرّراً لاستعمال الصّورة في تشكيل الخطاب؛ لأنّ المعاني تُعبِّر عن الإبهام بواسطة الأشكال والصّور التي ترمز إلى معانٍ ذهنيّة، والتعبير بالصّورة أمر مألوف في الآداب العربيّة وغير العربيّة، ولكنَّه في هذا اللّون من الرسائل تأتي رموزٌ تتعاضد في إنتاج خطاب متكامل له غاياته وأهدافه، وليست مجرّد أخيلة للتلوين البلاغيّ أو الترف العقليّ.

والرّسالة التي تتألّف من عناصر سياقيّة مثل: الرّمل والحصى والشوك غيرها، أو تلك التي تُبنى من رموز لفظيّة أو صور بلاغيّة ونحوها، إنّما تؤدّي وظيفتها الخطابيّة عن طريق التمثيل والقياس مثلما يقول عبد القاهر الجرجاني: "الصّورة إنّما هي تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا"(١).

وإدراك المعاني المضمرة في الرسائل المُعمَّاة تتوقّف على بناء الصّورة الحسيّة أو المعنويّة، والصّورة الحسيّة متوقّفة على دقّة الاختيار من العناصر السياقيّة الطبيعيّة عن طريق الملاحظة القائمة على الملاءمة وحُسن التمثيل أو التشبيه، أمّا الصّورة المعنويّة فمتوقّفة على جودة الكناية، أو الاستعارة

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، بدون تاريخ، ص٢٦٠.

أو التشبيه، ومن ثم على الصياغة المحكمة، والترتيب السليم لأجزاء الصّورة بالقدر الذي يمكّن المتلقّي من التأويل المناسب.

والمؤوّل للرّسالة يبحث عن معانٍ مضمرة وراء العبارات أو الصّور، أو العناصر السياقيّة، وهذه المعاني أخفاها المُرسِل عن طريق الألغاز والرّموز، والكلمات المجرّدة ، سواء في صورة النّص، أو عناصره أو في بنيته الكليّة، وعليه فإنّ البلاغة العربيّة بفنونها المعروفة هي لاعب أساس وشريك لا غنى عنه؛ حيث يلتبس دورها بدور المُرسِل والمتلقّي، ويظهر ذلك جليّاً في النّص، فالصورة البلاغيّة هي التي تتحكّم في ردود أفعال المتلقّي وتفاعله في النّص، بل تعطي للنّص سلطة التوجيه المُسبق إلى نمط القراءة والتحليل المناسبين، والتأويل السليم الذي يحرّر قوّة المعاني وتردّ شواردها، وتفكّ طلاسم الشفرات فيبدو كلّ شيء واضحاً.

إذاً البلاغة ركن ركين في أدب الرّسائل المُعمَّاة؛ فهي تعمل على إثارة الذّهن نحو الصّورة المرسومة بعناية ليشكّل منها الخطاب الذي عناه المرسل، وهو خطاب يعتمد على معانٍ تصويريّة تدرك بالحس والعقل، ويكون التركيز على الصورة البلاغيّة باعتبارها معرفة عن طريق الأشكال فيقيس المؤوّل الناحية الذّهنيّة على النّاحية الحسيّة فيتمكّن من إنشاء تصوّر متكامل للخطاب المراد في الرسالة؛ فالصورة البلاغيّة: تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا [1].

دور منشئ الرسالة المعمَّاة:

إنَّ منشئ الرسالة المعمَّاة تدفعه ظروف تحيط به إلى انتهاج السريّة والتعمية، وتحت وطأة تلك الظروف فإنه يستخدم ذكاءه وموروثه الثقافي في

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص٢٦١.

تشكيل رسالة من الألفاظ أو من عناصر الطبيعة؛ وهو ينتقي مكونات رسالته بعناية، ويحرص أن يكون كل عنصر رمزاً لمعنى يفترض أن المتلقي سيؤوله على النحو المقصود، وقد يضمّن رسالته إشارات خفيّة بطريقة بارعة تجعل المتلقّي في حيرة مما تدفعه إلى تجاوز الدلالة الظاهريّة للعناصر المكونة للرسالة إلى ما هو أعمق وأخفى.

فالمرسل (المنشئ) يحرص على التخطيط السليم في صناعة الرسالة وتشفيرها؛ دون أن يدع للمتربّص مجالاً لكشف حقيقة الرسالة وفحواها؛ فيلجأ للإيحاء عن طريق البراعة في انتقاء العناصر ثم الجمع بينها باحترافية عالية؛ تنم عن ذكاء واجتهاد، فيؤولها المتلقّي من خلال الربط المنطقي والذكي بين تلك العناصر ودلالاتها البعيدة.

دور المتلقّي المؤوِّل للرّسالة المُعماَّة:

إنّ للمتلقّي دوراً (عمدة) في إخراج الرّسالة من طور الرّمزيّة والإبهام إلى طور الوضوح والإفهام، ففي نقطة التقاء النّص المُرسَل بالمتلقّي المؤوّل تُولد الرسالة الحقيقيّة؛ بحيث يرسل المُرسِل (الغفل) ليقوم المتلقّي بدور الخبير الذي يحوّل (الغفل) إلى منتج معروف ذي خصائص معيّنة؛ فالمتلقّي يؤدّي دوراً كبيراً في جمع أشتات المعاني وتكوين رؤية المُرسِل، اعتماداً على تأويل شخصيّ لعناصر الرّسالة، يقول أيزر: "فلا حقائق في النّص، إنّما هناك أنماط وهياكل تثير القارئ حتّى تصبح حقائق، وهذه الهياكل تهيّئ مظاهر الحقيقة الخافية المخفيّة، ومن ثم يقوم القارئ بتوحيد هذه المظاهر وتأليفها، ويعيد باستمرار بؤرة اهتمامه حتى يستطيع أن يكوّن فكرة شاملة"(١).

(١) النص المترجم والمنهج، نظرية التلقّي أنموذجاً، عبد الله أبوهيف، مجلّة الآداب العالمية، العدد: ١٤٢، سنة ٢٠١٠م، سوريا، ص٣٨.

إنّ محاولة قراءة الرّسالة المُعمَّاة لاستجلاء الخطاب واستخلاص المغزى تستدعي بحثاً عن معانٍ مخفيّة سلفاً في النّص، والمؤوِّل يقيم مع النّص حواراً ذهنيّاً عميقاً، يستحضر فيه كلّ ما يحيط بالنّص من ظروف ودوافع، وثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده فيكوّن منها أسئلة يغزو بها مغاليق النّص ويقتحم أبوابه المؤصدة. وهنا تتجلّى مقدرة العناصر البلاغيّة في استيعاب كافّة أنواع الخطاب – لا سيما هذا النّوع من الرسائل – ويتجلّى في الوقت عينه مقدرة المُرسِل وسعة حيلته في التمويه وفي توظيف اللغة أو العناصر البيئيّة الحسيّة في بناء خطاب معيّن، كما تتجلّى مقدرة المتلقّي المؤوِّل في تحليل العناصر والصّور التي تظهر ملامح النّص وأهدافه.

والبلاغة العربيّة التراثيّة (ابنة الذّوق السليم) هي التي تقوم بعمليّة الرّبط بين معطيات الرّسالة (النّص) والمتلقّي (المؤوِّل)؛ فالبلاغة عنصر مهم يعتمد عليها المُرسِل في الصياغة المعمّاة (المشفّرة)، ويعتمد عليها المتلقّي في التأويل والتفسير، وعليه فإنَّ بناء النّص ومقدرة المتلقّي على التأويل يتكاملان في تحقيق غرض الرّسالة ومغزاها، ويكون هذا التحقيق فاعلاً متى قوِي عرى الارتباط بين النّص ووعي المتلقّي المؤوِّل لها بمرامي البلاغة.

إنّ القارئ لنّص من النّصوص لا بدّ أن تكون له مقدرة على القراءة والتعمّق والتحليل، وأن تكون له مرجعياته الخاصّة في الفهم والتأويل، والرّبط بين جزيئيات المدلولات اللفظيّة وغير اللفظيّة للوصول إلى الفكرة [1]، أمّا المتلقّي للرّسائل المُعمَّاة فلابدّ أن يتمتّع بكفاءة عالية قوامها طول التجربة والخبرة في الحياة، وصفاء الذهن، وشدّة إدراك البلاغة، والتعاطي مع السياق

(١) فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفغانغ أيزر، ترجمة: حميد لحمداني، الجيلاني الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس– المغرب، (ط١)، سنة ١٩٩٥م، ص١.

والموروث الثقافي التي تمكّنه من الوقوف على الروابط بين الدّال والمدلول، ومن ثم فهم الجوانب غير المرئيّة في الرّسالة، ثم الخروج برؤية تزيل ظلمة الألغاز والطلاسم، وتكشف المخبوء خلف الرموز.

والرّسالة المُعمَّاة بكل معطياتها ومكوناتها تظلّ عديمة القيمة إن لم تجد المتلقّي الذي يؤوّلها بما يتناسب ومراد المُرسِل، ولذا فإنّ منشئ الرّسالة المُعمَّاة يفترض قارئاً ضمنيّاً يصوغ رسالته إليه فهو متضمَّن في النّص؛ في شكله وأدواته ورموزه وأسلوبه، وهذا يجعل المتلقّي المؤوّل معنيّاً بتلمُّس المفاتيح الرمزيّة الموجّهة إلى القارئ الضمنيّ وتوظيفها بوصفها آليات فاعلة في فهم النّص وتأويله؛ والمؤوّل للرّسالة المُعمَّاة لا يفكّر خارج النّص؛ بل يفكّر بالنّص فيأخذ كلّ رمز أو عبارة ليحلّلها تحليلاً بلاغيّاً ليستنبط المعنى، وكلّ جزء تأويليّ يرتبط بسياق محدّد في النّص، وعليه فإنّ الانسجام الداخليّ هو الرّقيب والموجّه للمؤوّل؛ فهو لا يستطيع قراءة المعاني المستترة واكتشافها دون أن تكون منسجمة مع السياق الذي نشأت فيه.

دور الخيال في تشكيل المعنى في الرّسائل المُعمَّاة:

إنّ المعنى أو المغزى من الرّسالة المُعمَّاة هو المحكّ الذي يثير خيال المتلقّي المؤوّل، ويجعله يغوص في الأعماق؛ فالمعنى أو المغزى مهما كان غامضاً يظلّ لصيقاً بالرّسالة، وهذا المغزى هو السياق الذي تنطلق منه مراحل التأويل البلاغيّ عبر سلسلة من الاستنتاجات المتمخّضة بعضها عن بعض، في تطوُّر متنام لتكتمل في بلورة ذلك المغزى.

واستراتيجيّات التأويل في الرّسالة المُعمَّاة تكمن بالدّرجة الأولى في رحلة الفّكر والذهن على أجنحة الخيال؛ فالمقام يشكّك في الدّلالة الظاهريّة للرّمز فينتقل الذّهن والفكر إلى المعنى التالي، وهكذا حتّى تكتمل الصّورة

ويتّضح المراد. فمثلاً في رسالة رجل أسير إلى قومه ينــذرهم فيهــا غــارة وشيكة من آسريه(١).

إنَّ الذِّئَابَ قَدْ اخْضَرَّتْ بَرَاثِنُهَا وَالنَّاسُ كُلُّهُم بَكْرٌ إذَا شَبِعُوا (٢)

إنّ المقام يشكّك في أن تكون هذه الذّئاب المذكورة هي الحقيقيّة، فينتقل الذّهن – مجبراً – إلى المعنى الثاني وهو: أناس لهم صفات الذّئاب كالخفّة في الحركة، والعمل الجماعيّ، والشراسة، والحــرص علــى الغــارة؛ فتّتضــّح الصّورة: فالمراد بالذّئاب مقاتلون أشدّاء، يحملون رغبات صادقة في الهجوم، وهذه الرّغبة تلحّ على الذّهن أن يدرك أنّ لهم ثأراً وحقداً دفيناً، وهذا يقود – بالضرورة – إلى أنّ بينهم وهؤلاء المقاتلين ترة، فيمكن تخمينهم أو معرفتهم على وجه الدّقّة.

وكذلك الكناية في (اخضرّت براثنها) فإنّ السياق يشكّك في أن تكــون هذه (البراثن) حقيقيّة فينتقل الذّهن إلى المعنى الثاني وهي الأرجل، وهذا يفتح الباب لينتقل الفكر إلى أنّ اخضرار الأرجل تعني كثرة العشب، وهذا يشــير إلى نزول المطر وانتشار الخصب، وهذا بدوره يدلّل على أنّ الجيش الغازي في أحسن أحواله.

وهكذا فإنّ الرسالة المُعمَّاة تعمل على تحريك الخيال بطريقــة محــدّدة، وهذا يقتضي من المؤوّل الانتقال من مستوى تأويليّ إلى الذي يليه حتى يصل إلى مركز المكوّن النّهائي للفكرة أو الخطاب، فالمتلقّي يحتاج إلــى عمليــات ذهنيّة متّصلة؛ فينتقي ويستبعد، ويعيد ويمضي متنقّلاً مــن المحصّــل إلــى

(١) كتاب معاني الشعر، أبو عثمان سعيد هاون الأشنانداني، دار الكتب العلميّة، بيروت، (ط١)، سنة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ص٤٢.

(٢) براثن: مخالب السباع. بكر: قبيلة من أحياء العرب شديدة العداوة.

المتوقّع، ومن التشكيك في مقام إلى المعنى التالي، معتمداً على الحوار بين العناصر والتراكيب البلاغيّة، وعلى المفارقات في مكوّنات الرّسالة وعناصرها.

ويذهب عبد القاهر الجرجاني إلى الحديث عن مجال التفاعل بين النّص والمتلقّي أو المجال البلاغيّ في النّص فيقول بأنّ هناك جانباً من الغموض في الكلام أسماه الغموض الدّال المجزي أو المتضمِّن ما يبرز الجهد [١] وعلى ضوء ذلك فإنّ الرّسائل المُعمَّاة تقع في هذا النّطاق؛ فللغموض فيها دلالة مجزية تتضمّن ما يبرز الجهد ويبرره.

وفي نظريّة التلقّي الحديثة فإنّ الجزء المكتوب من النّص يمنح المعرفة، ولكن الجزء غيرالمكتوب هو الذي يمنح مجالاً لتمثيل الأشياء والإحساس بها، وبدونها لن يتمكّن المتلقّي من استثمار مخيلته ومن ثم عدم الانفعال أو الانتفاع بالنّص؛ فإنّ الجزء غير الموضّح- وهي الرّسالة الحقيقيّة – تحيل المتلقّي إلى فراغ أوسع ولكنّه محدّد بمعطيات المكوّنات النصيّة، فيجد مجالاً رحباً لخياله.

وفي بعض الأحوال يكون المؤوِّل مطالباً ببناء رسالة أو صناعة محتوى لرسالة غير موجودة اعتماداً على تقنية الإرصاد [٢] البلاغيّة، فيبني تصوُّره على ما يمليه عليه توقُّع قصد المُرسِل؛ فليس في النّص معنى يُكشف عنه من خلال الرّموز، وقد أشار بول أمسترونغ إلى هذا في قوله: "إنّ قدرة المؤوِّل على صناعة المعنى لا اكتشافه تعدّ مصدر حريّة وقيمة"[٣].

---

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٨.

(٢) انظر تحليل نموذج حول هذا الموضوع ص١٩ في هذه الدّراسة.

(٣) القراءات المتصارعة، التنوع والمصداقية في التأويل، بول أمسترونغ، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠٩م، ص٩.

دور الموروث الثقافي في تأويل الرسالة المُعمَّاة:

كانت للعرب ثقافات متنوعة اكتسبت بعضها بالتجربة والملاحظة، وبعضها الآخر عن طريق الاتصال بالشعوب الأخرى(١)، ولكن الغالب هو الثقافة المحليّة التي تكوّنت تراكميّاً، وبات موروثاً وموجّهاً يضيف فيه كل جيل من نتاج تجاربه وملاحظاته، ويصقلها لتصير من الثوابت، وجزءاً من الكيان المعرفي للأمّة على مرّ الزمان.

ومن الثقافات الراسخة منذ الجاهلية القيافة والعيافة، وهما مرتبطتان بثقافة الفراسة(٢)، والفراسة هي مهارة التعرّف على بواطن الأمور من ظواهرها وأشكالها، وما يستتبع ذلك من محاولة الاستدلال بالأثر على الشخص وصفاته، وهذه الثقافة من أكبر بواعث قراءة الرموز والإشارات في الرسائل المُعمَّاة، ومحاولة استشفاف مقصود المرسل.

وللعرب ثقافة واسعة بالنجوم والأنواء(٣)، فهم يعلمون أسماءها ومواقيتها ومنازلها، لارتباطها بحلهم وترحالهم، ومواسم الخصب والجدب، وعدد السنين والحساب، والاهتداء بها، فذكروها في أشعارهم، وتمثلوها في معانيهم، ورمزوا بها لأحوالهم النفسيّة، وكانت لها نصيب في الرسائل المُعمّاة، فاستثمرها المرسل في التعمية، واعتمد عليها المؤول في تفكيك طلاسمها، وتحويل رموزها ومعمياتها على معانٍ واضحة بيّنة.

---

(١) تاريخ العرب القديم، توفيق برّو، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ودار الفكر، دمشق – سوريا، (ط٢)، سنة ١٩٩٦م، ص٢٧١ وما بعدها.

(٢) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، نخبة من العلماء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة – مصر، إشراف محمد حمدي زقزوق، سنة ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ، ج١ص٩٥.

(٣) تاريخ العرب القديم، توفيق برّو، ص٢٧٦.

وثقافة الحرب شائعة في العرب[١] فهم بحكم خبرتهم بالاقتتال وخوض المعارك يدركون الكثير عنها، وتحوّل ذلك الإدراك بمرور الوقت إلى ثقافة هائلة، ومن ذلك أنّهم كانوا يعرفون – مثلاً – أنّ الأرض الوعرة تعيق حركة العدو المعتدي أو الغازي، وأنّ الأرض السبسب أو الدهناء هي الأسهل؛ فكانوا إذا أرادوا وضع العراقيل أمام عدو يخشونه فإنهم يمتنعون بالأرض الغليظة الوعرة، وكان هذا الموروث الثقافي حاضراً في الرسائل المُعمَّاة؛ فشُكِّلت منها رموزاً أفاد منها منشئو تلك الرسائل، وأفاد منها المؤولون في فهم دلالتها.

إنَّ تأويل الرسائل المُعمّاة ليست وقفاً على الذكاء الفطري وتوقُّد القريحة فحسب؛ بل كان للموروث الثقافيّ الغني والمتنوّع أثر لا يخفى في فهم الرموز ومراميها والإشارات الخفيّة التي لا تكاد تحس، فكان لها أثر بارز في بناء وتأويل هذا اللون من الرسائل.

(١) شعر الحرب في العصر الجاهلي، علي الجندي، دار الفكر العر بي، القاهرة – مصر، بدون تاريخ، ص١٥ وما بعدها.

المبحث الأول: عناصر التعمية

يقوم فن الرسائل المُعمّاة على عناصر رئيسة تشكّل الأسس التي يُبنى عليها الإنشاء والتأويل، وهي:

١- النَّص:

إنّ تعريف النص ووضع حدود له أمر عسير؛ فقد تعدّدت تعريفاته لدى الباحثين بتعدُد توجّهاتهم المعرفيّة، وباختلاف مناحيهم ومشاربهم البحثيّة، وهذا التنوُّع في محاولات تعريفه يعكس عدم استقرار مفهومه لتباين الطرق الإجرائيّة في الحقول المعرفيّة المختلفة [١].

ويعرّفه محمد مفتاح بأنّه "وحدات لغويّة طبيعيّة منضّدة متسقة منسجمة"[٢]، وهذا التعريف يتفق مع مفهوم عبد القادر شرشار الذي يرى أنّ النص نسيج متماسك يقوم على التنظيم، وبراعة الصنع والجهد والقصد والكمال والاستواء [٣]، والرسائل المُعمَّاة التي نحن بصدد دراستها أكثر ارتباطاً بهذا المفهوم؛ فهي نصوص تعتمد على التأويل، وهذا يتطلّب من منشئها الدّقة والتنظيم والبراعة والإتقان، ونحوها من الأمور التي تجعل منه وحدة دلالية.

---

(١) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، حسين حمري، الدار العربية للعلوم ناشرون، (ط١)، سنة ٢٠٠٧م، ص٣٥.

(٢) التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، (ط١)، سنة ١٩٩٣م، ص١٤.

(٣) تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، عبد القادر شرشار، اتحاد الكتاب العربي، دمشق – سوريا، سنة ٢٠٠٦م، ص١٧.

وهناك عدد من المفاهيم العلميّة للنص عند العلماء والباحثين، يمكن الرجوع إلى بعضها[١]، ولكن عموم تلك المفاهيم المتعدّدة تشير إلى أنّ النص بنية لغوية ذات بُعد تواصلي، تنتجه ذوات متعدّدة في ظروف وأحوال مختلفة، ومن ثم فهو حدث تفاعليّ له طول معلوم، أي: منغلق، ولكنه توالديّ المعنى[٢]؛ فهو وحدة دلاليّة تدلّ على معنى أو معانٍ، وللمعنى وسائل متعدّدة أشهرها اللفظ، ويمكن للعناصر غير اللفظيّة أن تدلّ على معنى أو معانٍ، وفي الرسائل المُعمَّاة ترد – نادراً – عناصر غير لفظيّة للإشارة إلى معانٍ محدّدة تشكّل خطاباً ذا أبعاد دلاليّة.

وعليه فإنّ (النَّص) نظام لغويّ في أكثر وجوهه سواء أكان ملفوظاً أم مكتوباً، وقد يأتي النَّص من عناصر غير لغوية، ومن هنا فإنّ النَّص يشمل كل ما يؤدّي معنى أو دلالة مفهومة أو مؤولة، وهذا ما قامت عليه بعض نماذج الرسائل المُعمّاة؛ فقد نُسجت من عناصر غير لغوية كالرمل والشوك والحصى وغيرها للدلالة على معانٍ معيّنة، ويرى الباحث روبرت دي بوجراند أنّ النَّص قد يتّسع ليشمل عناصر غير لغوية فيقول: إنَّ النَّص قد

---

(١) انظر على سبيل المثال:

– في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، (ط٢)، سنة ٢٠٠٠من ص٣٥.

– انفتاح النص الروائي، النص والسياق، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، (ط٢)، سنة ٢٠٠١م، ص٣٢.

– النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، محمد عزّام، اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، سنة ٢٠٠١م، ص١٤.

(٢) تحليل الخطاب والنص الشعري، استراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، (ط٣)، سنة ١٩٩٢م، ص١٢٠.

"يتألف من عناصر ليس لها ما للجملة من الشروط مثل علامات الطرق، والإعلان، والبرقيات ..."[١].

وقد تجاوزت الكاتبة جوليا كريستيفا التصوُّر اللغويّ للنَّص حسب التصوُّر البنيويّ الشائع، وذهبت إلى أنّ النَّص قد يُبنى من عناصر لغويّة وغير لغويّة [٢] مؤكّدة بذلك انفتاح النَّص واتساع حدوده ومكوناته.

والتلقّي عنصر مهم في فهم النّصوص، لأنَّ فهم المعنى أو تأويله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمتلقّي أو المنوط به فهم المعنى أو تأويله؛ فالنَّص "نتاج لفعل ولعملية إنتاج من جهة، وأساس لأفعال وعمليات تلقٍّ واستعمال داخل نظام التواصل والتفاعل من جهة أخرى"[٣].

والرسائل المُعمَّاة نّصوص ولّدت في ظروف وأحوال خاصّة، وهي ملك للمتلقّي المؤول الذي يقرؤه على ضوء إشارات معينة توصله إلى مراد المرسل، وهي قراءة إنتاجيّة تحوّل صيغة النّص الأصليّة إلى صيغة جديدة وفق الدلالات الرمزيّة والإشارات المرجعيّة فيصير المؤول منتجاً لنّص جديد من خلال عمليات التفكيك وإعادة البناء.

والرسالة المُعمَّاة نّص له وظيفة اتّصالية تقوم على الرمز والإيحاء وفق علامات وإشارات يلتقطها المؤول، ويبني عليها تصوراته، وهذا ما يؤكده بوجراند في قوله: "ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه، تتفاعل فيه

---

(١) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة – مصر، (ط١)، سنة ١٩٩٨م، ص٩٧.

(٢) التناص في الخطاب النقدي البلاغي، عبد القادر بقشي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، (ط١)، سنة ٢٠٠١م، ص١٥٦.

(٣) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، محمد عزّام، ص١٦.

مجموعة من المرتكزات والتوقّعات والمعارف، وهذه البنية الشاسعة تسمى سياق الموقف"[١].

٢- السِّياق:

من المعلوم أنّ التواصل ينعقد بين قطبين هما: المُرسِل (وهو منشئ الرسالة في صورة ما)، والمتلقّي (الذي يقوم بعملية التحليل والتفسير) وربما التأويل انطلاقاً من السياق الذي يحيط به.

ويأتي السياق على ضربين: السياق اللغويّ، والسياق غير اللغويّ، الذي يشمل كل ما يحيل إلى خارج النص من مؤثرات بيئية [٢] تؤثّر في النّص وتصبغه ببعض ألوانها، وقد كان تأثير البيئة والثقافة المحليّة كبيراً في تشكيل الرسائل المُعمَّاة، وشكّلت كذلك موجّهات للمؤول في رصد المعاني التي أرادها المُرسِل.

وبالنظر إلى الرسائل المُعمَّاة – شأن غيرها من النّصوص– نجدها واقعة في بؤرة تتجاذبها علاقتان: داخليّة من حيث الانسجام والترتيب والتماسك النصّي، وخارجيّة وهي تأثير البيئة المحيطة بحمولتها الثقافيّة والمعرفيّة، مما تؤكّد حتميّة العلاقة التلازميّة بين النّص والسياق، وهذا ما أشار إليه جون لاينز إذ يرى أنّ النّص والسياق كلاهما مكمّل للآخر، ويعتبر النّصوص مكونات للسياق، التي تظهر فيها[٣]، والفكرة نفسها نجدها عند

---

(١) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ص٩١.

(٢) الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، يوسف أوغليسي، رابطة الإبداع والثقافة، الجزائر، سنة ٢٠٠٠م، ص١١٧-١١٨.

(٣) اللغة والمعنى والسياق، حون لاينز، ترجمة: عباس صادة، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، (ط١)، سنة ١٩٨٧م، ص٢١٥.

هاليداي ورقية حسن اللَّذين ذهبا إلى تأكيد قوّة الارتباط بين النّص والسياق "فكل من النّص والسياق يمكن تفسيره بالرجوع إلى الآخر"(١).

ومن هنا ندرك أنّ الرسالة المُعمَّاة لا يمكن تفسيرها واستجلاء كوامن الدلالات المستترة خلف رموزها إلا باستثمار معطيات السياق باعتباره من الركائز المهمّة في استجلاء معنى النص المُرسَل، وإبراز خفاياه، والمتلقّي المؤول للرسالة هو جزء من السياق؛ فهو حين يشرع في تفكيك الرسالة فإنَّه يستدعي مخزونه المعرفيّ والثقافيّ المستمد من البيئة ويسقطها على الرسالة، وهنا يصرّح جون روبرت فيرث بأنّ معنى النّص لا ينكشف إلا من خلال السياق المحيط به(٢)، فتحليل كل رمز أو إشارة وتأويلها يتطلّب تحليلاً للسياق والموقف، استناداً إلى الموروث الثقافي النابع من البيئة أو السياق وعناصره المحيطة بالنص.

وفي بعض الرسائل المُعمَّاة يستعمل المُرسِل عوضاً عن اللغة بعض العناصر السياقيّة؛ فتتجلّى أهميّة الرجوع إلى معطيات السياق في فهم معنى النص المُرسَل انطلاقاً من المكتسبات المعرفيّة للمتلقّي المؤول للرسالة؛ فهي ضروريّة في إقامة الروابط بين الإشارات والرموز للوصول إلى مقصود الرسالة، وللوصول إلى الفهم الفعّال لابد من الربط بين مكونات الرسالة ومعطيات السياق، واستدعاء الموروث الثقافيّ والمعرفيّ، ولكل نص عوامل

---

(١) الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، يوسف أوغليسي، ص٣٣.

(٢) الأصول، دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو – فقه اللغة –البلاغة، تمام حسان، دار الثقافة، عالم الكتب، القاهرة – مصر، سنة ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ص٦٨ – ٦٩.

سياقية تعين على فهمه؛ فيتمكّن المتلقّي من معالجة الرموز والإشارات الإيحائية والوقوع على التأويل المناسب.

وكل رسالة مُعمَّاة تؤول من خلال السياق الإدراكيّ أو المعرفيّ، وهذا ما أشار إليه فان ديك عندما تحدّث عن مجموعة المعطيات السياقيّة التي تعين على فهم النص(١).

٤،٣- التأويل والمؤولات:

النّصوص – عموماً – في حاجة إلى مناهج وآليات ومعارف لاستنطاقها وسبرها، والتأويل في الرسائل المُعمَّاة آلية وحيدة لفهم النّص، وإخراجه من الهيئة الظاهريّة إلى الصورة الحقيقيّة التي عناها الباعثّ أو المُرسِل.

والتأويل منهج عقليّ واستدلال منطقيّ، وتحليل موضوعيّ لمعطيات محدّدة في الرسالة المُعمَّاة، مع الاستعانة بالمؤولات (وسائط التأويل) في استنباط المعنى المراد، وهي بمثابة قاعدة تعمل كموجّهات لعقل المؤول في تلقّي النَّص المُعَمَّى.

ووسائط التأويل أو المؤولات التي يتعيّن معها مفهوم التأويل في هذا اللون من الرسائل هي (المتلقّي، والسياق، والموروث الثقافي والمعرفيّ، والذكاء الفطريّ، وبراعة المُرسِل في اختيار عناصر الرسالة وترتيبها)، والعملية التأويلية تُبنى على هذه المؤولات، فيتم أولاً الكشف عن هياكل (أوعية) المعنى وهي الرموز والإشارات، ثم الربط البلاغيّ بين الرموز ودلالاتها، وهي عملية يؤدّي فيها الخيال والإثارة والتحليل والتمنّع والقبول دوراً رياديّاً في الوصول إلى درجة من الفهم، بعد ربط مكونات المعاني

---

(١) السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، علي آيت أوشان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء – المغرب، (ط١)، سنة ٢٠٠٠م – ١٤٢١هـ، ص٨٣.

لتتحوّل الرموز إلى كلمات ناطقة لها غاية، وهذا هو القالب التأويلي الذي اختصره محمد شوقي الزين في قوله: "الاكتشاف والانتخاب، وإعادة التشكيل، ثم التركيب كخطوة نهائية"[١] وهكذا فإنّ التأويل في الرسالة المُعمَّاة نزاع سلمي بين المثير والاستجابة.

٥- المؤوّل:

التأويل عملية ذهنية "تقع داخل خيال المؤول"[٢] من خلال نسيج مركّب من إشارات وتعبيرات ودلالات متداخلة تستدعي التفكيك والعزل لفحص بنيتها [٣]، وهذا النشاط التأويلي للمتلقّي المؤول هو الذي يقود إلى فهم مقصود المُرسِل، وهكذا يعيد المؤول صناعة المحتوى الذي فهمه من إيحاءات الرسالة، وهو ليس فهماً منعزلاً عن مقصود المرسل كما يريده إيزر الذي يقول: "فنصبح صنّاع المعاني التي نفهمها"[٤]. والمؤول للرسالة المُعمَّاة لا يمكن له تأويلها بمعزل عن السياق، وبحسب بول ريكور فإنّ التأويل يقوم على دعامتين (النص والسياق) [٥]؛ فالنّص المُعَمَّى بما يحمله من طاقة إيحائيّة، وعناصر رمزيّة لا يمكن للمؤول تأويلها بالصدفة، ولا بالفتح الإلهي وإنما بالتعاطي مع السياق والموروث الثقافيّ والمعرفيّ، والسياق بما يحمله

---

(١) تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، محمد شوقي الزين، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠م، ص١٩.

(٢) نظرية الأدب في القرن العشرين (١)، ك. م. نيوتن، ترجمة: محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، سنة ١٩٩٦م، ص٢٤٢.

(٣) تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، محمد شوقي الزين، ص١٩.

(٤) نظرية الأدب في القرن العشرين (١)، ص١١١.

(٥) نظرية التأويل والخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء، (ط١)، سنة ٢٠٠٣م، ص٣٠.

من قيم معرفية وثقافية تشكل منطلقات للمؤول تعينه على فهم الإشارات الإيحائيّة وتهيئ الأجواء التي يضطرب فيه التأويل فيعمل المؤول على هديها – مطمئناً – على إعادة بناء النّص.

والمُرسِل حين يبدع رسالته المُعمَّاة يودعها بعض الصور والعناصر البلاغية فيجعلها تهمس في أذن المؤول من طرف خفي؛ فالنّص هنا يقوم بدور مزدوج في التعمية والإفصاح، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (قصديّة الصور النصيّة) التي تثير في ذهن المؤول المعاني المستفادة بدقّة عالية، فالمؤول يفسّر ويحلّل على ضوء استجابته لمنطق تجربته في قراءة النّص وانفعاله بعناصره ومكوناته. والرسالة المُعمَّاة بما تحويها من رموز ومعان مستترة خلفها تحيل عملية التأويل إلى ردود أفعال المتلقّي المؤول القائمة على الانفعال والنظرة الجدلية بين السياق والخيال[١] مما تجعل الإشارات والرموز والعلامات "تشعّ أفكاراً ومعانياً"[٢]، وهذه الرسائل لا تنطق ولا تفصح عن مكنوناتها إلا إذا وجدت استجابة واعية من متلقٍ حاذق يعرف كيف يستثمر عناصر الرسالة، والسياق هو الذي يفرض موجّهات لفهم النّص؛ فكل علامة رمزية قابلة للتأويل بناء على دلالة السياق مما يمنع تشتت ذهن المتلقّي؛ فلا يتوه في فيافي المُعمَّيات، وهكذا يتقلّص الاستقطاب في أقل حدود ممكنة من التأويلات المحتملة[٣]. والعلامات الرمزيّة تؤازر بعضها بعضاً لتضيء للمتلقّي المؤول السبيل؛ فيتلمّس طريقه نحو المعاني الحقيقيّة بعد أن تنقشع حنادس المُعمَّيات.

---

(١) فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى، حبيب مونسي، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة ٢٠٠٠م، ص٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠٠.

(٣) نظرية التأويل والخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ص٤٥.

وعليه فإنّ التأويل في الرسائل المُعمَّاة هو عملية إعادة بناء النّص باستصحاب وسائط التأويل، على نحو يمكّن من استيعاب عناصر النّص بدقّة، فالمُرسِل يبدع الرسالة بهدف يقصده يستوجب إعادة تشكيله "بأي بيّنة تصل إلى يد المؤول"[١] ووصول المؤول إلى مقصد المُرسِل لا يعتبر فتحاً غيبياً أو اكتشافاً فريداً وإنّما هو إنشاء قالب تأويلي على ضوء معطيات الرسالة. وقد نقل إمبيرتو إيكو عن جاك دريدا قوله إنّ النص آلة تنتج سلسة من الاحتمالات اللامتناهية[٢]، وشاطره إيكو الرأي حين قال: "إنّ النص كون مفتوح"[٣]، ولكن الأمر ليس كذلك في الرسائل المُعمَّاة؛ فهي محاطة بسياج قويّ من الرموز والإيحاءات والإشارات، والسياق، والموروث الثقافي والمعرفي التي تجعل دلالة النصوص محدودة بل ومحدّدة؛ فالمؤول يستمدّ إشعاعه من مادّة الرسالة، ومن بنيتها البلاغيّة والشكليّة، ومن الأجواء الرمزية التي تتحرك فيها علاماتها إلى جانب السياق.

---

(٤) نظرية الأدب في القرن العشرين (١)، ك. م. نيوتن، ص١٠٨.

(٥) التأويل بين السيمائيات والتفكيكية، إمبرتو إيكو، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء – المغرب، (ط١)، سنة ٢٠٠٠م، ص١٢٤.

(٦) المرجع السابق، ص٤٢.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقيّة

١- قيل إنَّ اللهازم[١] تجمعت لتغير على بني تميم، وكان ناشب بن بشامة العنبري (المعروف بالأعور) أسيراً في قيس بن ثعلبة، فأراد أن يحتال لينذر قومه فقال لهم: أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي أوصيهم ببعض حاجاتي، فقالوا له: ترسله ونحن حضور، قال: نعم، فأتوه بغلام مولّد، فقال: أتيتموني بأحمق، فقال الغلام: والله ما أنا بأحمق، فقال: إنِّي أراك مجنوناً، قال: والله ما بي جنون، قال: أتعقل؟ قال: نعم، إنِّي لعاقل، قال: فالنيران أكثر أم الكواكب؟ قال: الكواكب وكل كثيرة، فملأ كفّه رملاً وقال: كم في كفي؟ قال: لا أدري فإنه لكثير، فأومأ إلى الشمس بيده وقال: ما تلك، قال: الشمس، قال: ما أراك إلا عاقلا؛ فأبلغهم السلام، وقل لهم ليحسنوا إلى أسيرهم فإني عند قوم يحسنون إليّ ويكرموني، وقل لهم فليعروا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء[٢]، وليرعوا حاجتي في بني مالك، وأخبرهم أن العوسج[٣] قد أورق، وأن النساء قد اشتكت[٤]، وليعصوا همام بن بشامة فإنه مشؤوم مجدود[٥]، وليطيعوا هذيل بن الأخنس فإنه حازم ميمون، واسألوا الحارث عن خبري.

---

(١) وهي قيس وتيم اللات ابنا ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ومعهما عجل بن لجيم وعنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار.

(٢) العيساء من الإبل: ما صار لونها أبيض تخالطه شقرة، وهي من كرائم الإبل.

(٣) العوسج نبات شائك من الفصيلة الباذنجانية، وهي شجيرة تنبت في السباخ، لها أغصان قائمة مشوكة، ولها ثمر أحمر يؤكل.

(٤) اشتكت: من شكّ الجلد بالمخرز ونحوه، إذا خاطه، والمراد خياطة المزادات التي تحمل فيها الماء.

(٥) مجدود: مقطوع أو سيء الفأل.

وسار الرسول فأتى قومه فأبلغهم؛ فلم يدروا ما أراد، فأحضروا الحارث وقصّوا عليه خبر الرسول، فقال للرسول: أقصص عليّ أول قصتك، فقصّ عليه أول ما كلّمه حتى أتى على آخره، فقال: أبلغه التحية والسلام، وأخبره أنّا نستوصي بما أوصى به، فانصرف الرسول، ثم قال لبني العنبر: صاحبكم قد بيّن لكم؛ أما الرمل الذي جعله في كفّه فإنّه يخبركم أنّه قد أتاكم عدد لا يُحصى، وأمّا الشمس التي أومأ إليها فإنَّه يقول ذلك أوضح من الشمس، وأما جمله الأحمر فالصمان فإنّه يأمركم أن تعروه يعني ترتحلوا عنه، وأمّا ناقته العيساء فإنّه يأمركم أن تحترزوا في الدهناء، وأمّا بنو مالك فإنّه يأمركم أن تنذروهم معكم، وأمّا إيراق العوسج فإنَّ القوم قد لبسوا السلاح، وأما اشتكاء النساء فإنّه يريد أنَّ النساء قد خرزن الشكاء وهي أسقية الماء للغزو(١).

هذه رسالة مُعمَّاة مبهمة بعث بها هذا الأسير إلى بني قومه لينذرهم عاقبة هذه الغارة القريبة التي توشك أن تباغتهم، وهي رسالة قائمة على تمثيل بديع استمدّت أدواتها من البيئة المحلية، وجعلتها رموزاً لمعان أرادها المرسل، وقد عقد المرسل عناصر بيانية من تشبيهات وكنايات بصورة مذهلة، مستثمراً معطيات البيئة، ومعتمداً على ذكاء القارئ في كشف رموز الرسالة.

وهذه الرسائل لا يفكك طلاسمها، وقراءة خطابها الداخلي إلا من أُوتي حظّاً وافراً من الخبرة وبُعْد النّظر، والقبائل العربية لا تعدم أمثال هؤلاء في غابر عهودها. فليس هناك اتّفاق مسبق على هذه الشفرات وإلا لفهمها العدو قبل أن يفهمها من فهمها من قومه، بل لأنّ هذه الشفرات لم تدر بخلد أفراد

(١) الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ١/٦٢٨-٦٢٩.

قومه فلم يدركوا منها شيئاً مما حداهم إلى إحالة الأمر إلى الحارث، والمُرسِل كان قد أشار إليهم في الرسالة صراحة أن يحيلوا هذا الأمر إليه (واسألوا الحارث عن خبري)، وكأنّما الرسالة قصد بها (الحارث) ليفكّ شفراتها ويحلل طلاسمها فيدرك فحوى الخطاب ومراميه.

وقد نجح (الحارث) في تفسيرها كما أرادها المُرسِل (ناشب بن بشامة)، وهذا التفسير لم يكن مصادفةً أو نتيجة لذكاء خارق فحسب، بل يضاف المقام الذي جاءت فيه الرسالة فقد كان باعثاً أيضاً على التمكن من إصابة المعنى بدقة؛ فالعداوة المستمرّة بين تميم واللهازم، ووجود أسير من تميم لديهم، إلى جانب الخبرة، وادّعاء الأسير (أن له جملاً أحمر وناقة عيساء) كلها أمور هيّأت الجو الذي اضطرب فيه التفسير وتحليل فحوى الخطاب. فالمقام (الأسْر– العداوة – معلومات غير صحيحية من أنّ له جملاً أحمر وناقة عيساء) حمل العقل على التشكيك وتجاوز هذه الأمور الظاهرة إلى معانٍ محتملة، اعتماداً على قرائن قائمة حين تلقيه؛ فالعداوة قائمة بين تميم واللهازم، والغارة متوقّعة منهم، وأسير تميم (ناشب) لا يزال في اللهازم مطّلعاً على خبرهم، والرسالة نفسها تحوي وصية عن أشياء لا يملكها (ناشب) ولا وجود لها (الجمل والناقة)؛ فكل تلك العوامل الآنية حينذاك قابلة للتغير فيما بعد، ولذا فإن فهم الرسالة قائم على لحظة التواصل بين الرسول والحارث، والرسول يمثل مقام الأسير في التبليغ.

والبعد البلاغي للرسالة يكمن في دقّة التمثيل البلاغي؛ فقد أفلح المُرسِل في ذلك إلى الحدّ الذي جعل المفسّر لا يحيد عن المراد والقصد.

فقد فسّر (حفنة الرمال) بكثرة الجيش، وهذه كناية قائمة على التشبيه الذي يبرز كثافة المقاتلين فعددهم لا يُحصى شأن الرمل، وليس بالضرورة

كثرة الرمال للدلالة على كثرة الجيش؛ فالحفنة تكفي؛ فلا أحد يستطيع عدّها، كما أنّ الأعداء كانوا حضوراً يستمعون هذا الحوار بين الأسير والرسول، فالتمثيل بالرمل يدل على الكثرة التي يخطئوها العدّ، ولعلّ هذا يعضّد كثرة النيران التي أشار إليها بسؤاله (النيران أكثر أم الكواكب) فكثرة النيران التي توقد في المعسكر تشير إلى كثرة الجيش.

وقد شبّه الأمر الواضح بالشمس بجامع الإبانة، فالشمس حقيقة ماثلة لا يرقى إليها الشكّ، وهي تفضح كل شيء بضوئها وحرّها؛ فكأنما أراد أن يقول: إنّ هذا الجيش يستعدّ لغزوكم والأمر واضح وضوح الشمس، وذلك زيادة في إنذارهم ليأخذوا حذرهم، وليتأهّبوا لمجابهة العدو الزاحف نحوهم.

وقد استعار (إعراء الجمل الأحمر) لمغادرتهم مضاربهم الحالية والرحيل عنها؛ فهي غير مناسبة للقاء العدو فتجعلهم عرضة للهزيمة، واستعار (ركوب الناقة العيساء) للأرض التي يجب أن يرحلوا إليها ويمتنعوا بها، ووجه الشبه قوي بين إعراء الجمل وإزالة ما به من وبر أو سرج ونحوه، ومفارقة المكان والزوال عنه، ولما في الجمل من الشدّة والبأس، وركوب النّاقة مستعار لنزول الدهناء أو الصحراء أو الفلاة لما في الناقة من اللين والسهولة.

وكنّى عن إنذار بني مالك (برعاية حاجته فيهم)، والرعاية تستدعي المحافظة وإحاطة الشيء بالعناية، وكأنّه يومئ إليهم برعاية الجوار وصلة القرابة أو العهد؛ فينذروهم بخبر الغارة، وما أعدّته (اللهازم) من الموت على أسنّة الرماح وشفار السيوف، والكناية هنا لطيفة لم تَدَع إلى فهم معناه سبيلاً للعوام، وربما لم تكن له حاجة حقيقيّة في بني مالك تدعو إلى رعايتها مما أعان (الحارث) إدراك مراده.

وكنّى عن (إيراق العوسج) بلبس السّلاح والتأهُّب للغارة، والعوسج نبات كثيف الشوك مما يدلّ على كثرة السلاح ومن ثم عظمة الجيش، ولعلّ وصف الجيش العرمرم المسلّح بذي الشوكة أو ذات الشوكة قد يقرّب المعنى، ولكن المُرسِل استطاع صرف الأعداء عن فهم مقصده بأن جعل الشوك شوك العوسج؛ فلا شك أنّهم لم يتجاوزوا ذلك إلى فهم المعاني الكامنة وراءها.

وكنّى بـ (اشتكاء النساء) عن إعداد بعض مستلزمات الحرب، وهي القِرَب التي تحمل فيها الماء، والمعنى الظاهر هو قيام النساء بخياطة الجلود لإعداد مواعين حمل المياه للجيش، والمعنى المراد إعداد مستلزمات الحرب، وهي صورة تعبّر عن قُرْب الواقعة، وإكمال الجيش كل ما يلزمه للمسير.

هذه الرسالة ذات المعاني الخفيّة والدلالات السريّة خرجت من بين أسماع العدو، وبحضورهم وانتباههم لئلّا يشي بهم هذا الأسير، ولكنّه كان قد أعدّ خطّته، واختار ألفاظه وعناصر خطابه بعناية، ورسم دلالاته بدقّة؛ فوظّف البلاغة توظيفاً دقيقاً في اعتماده على قرائن ماثلة مثل العداوة بين قومه و(اللهازم)، وذكاء (الحارث)، ووجوده أسيراً بين ظهراني العدو، وربما لم يكن له جمل أحمر من الأساس أو ناقة عيساء، وربما لم تكن له حاجة تستحق الرعاية في بني مالك مما يفتح باب التأويل والتفسير لطلاسم الرسالة.

وقد أدّت البلاغة دوراً محوريّاً في تجلية الرسالة ورسم معانيها عن طريق عقد التشبيهات والاستعارات والكنايات، وربما التورية في قوله (اشتكت النساء) فلفظة (اشتكت) قد يُفهم منها (الشكوى) أي: شكوى نسائه من طول بقائه في الأسر دون فداء، وهذا هو المعنى القريب الذي ربما يكون قد صرف أعداءه عن مراده، وقد يفهم من (اشتكت) خرز المخرز في الجلد لصناعة أوعية الماء اللازمة لمسير الجيش وهو المعنى البعيد الذي أراده.

والبلاغة فن مألوف في آداب العرب، وبلغت فيها الغاية، غير أنّ هذه الرسائل المُعَمَّاة لا تقوم بدونها، ولا تتضّح معانيها، ولا يستقيم ظلّ تأويلها إلا بها؛ فالرموز تستدّعي صلة مشابهة مع المرموز إليها، وهذه الصلة هي أساس الوقوف على دلالات المعاني الخفيّة، وهذه الصلات تتوزّع – حسب استعمال المُرسِل – بين التشبيهات أو الاستعارات، أو الكنايات، أو التوريات، أو الإشارات، وغيرها من الأنواع البلاغيَّة.

وخلاصة القول في هذا المجال هي الإشارة إلى أهميّة الألوان البلاغيّة في هذا النوع من الرسائل إلى جانب الذكاء والفطنة وقرائن الأحوال التي تمنح الرسالة بعداً فنيّاً متميّزاً.

٢- سار (لقيط بن زرارة) بجموع هادرة ليغزو (بني عامر بن صعصعة) للأخذ بثأر أخيه (معبد بن زرارة)، فلقي في بعض الطريق (كرب بن صفوان بن الحباب السعدي) – وكان شريفاً – فقال له (لقيط): ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا؟ قال: أنا مشغول في طلب إبل لي. قال: لا بل تريد أن تنذر بنا القوم، ولا أتركك حتى تحلف أنّك لا تخبرهم، فحلف له، ثم سار (كرب) وهو مغضب.

فلما دنا (كرب) من (بني عامر) أخذ خرقة فصرَّ فيها حنظلةً وشوكاً وتراباً وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلّم.

فأخذها (معاوية بن قشير)، فأتى بها (الأحوص بن جعفر) وأخبره أن رجلاً ألقاها وهم يسقون، فقال (الأحوص) لـ(قيس بن زهير العبسي): ما ترى في هذا الأمر؟ قال: هذا من صنع الله لنا، هذا رجل قد أُخذ عليه عهدٌ على ألا يكلّمكم فأخبركم أنَّ أعداءكم قد غزوكم عدد التراب، وأنَّ شوكتهم

شديدة، وأمّا الحنظلة فهي رؤساء القوم، وأمّا الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم، وأمّا الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زرارة، وأمّا الأحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم إليها، قد أنذرتكم فكونوا أحراراً فاصبروا كما يصبر الأحرار الكرام(١).

استطاع (كرب) أن يوظّف بعض معطيات البيئة البدوية الشائعة – حينذاك – لينقل رسالة معقّدة في النذير، وقد كان للأميّة المتفشّية – في ذلك الوقت – أثر مباشر في التفكير في بدائل فعّالة في نقل الأخبار المهمّة حين يكون الكلام متعَذَّراً كما في حالته هذه، فقد أُخذ عليه ميثاقٌ ألا يتكلّم بأمر هذه الغزوة السريّة التي كانت تعتمد على مداهمة (بني عامر)، ومباغتتهم لتصيب منهم غِرّة تكون مفتاح النّصر.

وللخبرة أثر واضح في اختيار تلك العناصر المحليّة المتاحة التي تمنح قدراً من كالدلالة على المعاني التي يريدها المُرسِل، مع أنّها ليست رموزاً متّفق عليها شأن النّظُم العسريّة الحديثة، ولكنها رموز مبتكرة ابتكاراً فرديّاً تعتمد على فطنة من يحذّرهم في فهم طلاسمها المشفّرة، وبيان مقاصدها المضمرة؛ فاختار – بذكاء – لكل معنى عنصراً يدلّ عليه من خلال عقد التشبيهات والاستعارات ونحوها من ألوان البلاغة.

وذكاء (الأحوص) أكثر حدّة في فهم الرسالة، فأدرك مراميها وأنذر الناس، وكأنّه يقرأها من صحيفة مخطوطة؛ فقد فسّر كل العناصر المرسلة بدقّة متناهية، تنبئ عن مقدرة عالية في قراءة معطيات البيئة والتفاعل معها.

---

(١) أيام العرب في الجاهليّة والإسلام، محمد أحمد جاد المولى، وآخران، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، بدون تاريخ، ص٦٨.

وهذه الرسالة اعتمدت على عناصر حيّة بتمامها وليست على ألفاظ كما هو مألوف في الرسائل الشفهيّة أو المحرّرة، وهذه العناصر هي (التّراب، والشوك، والخرقات، والأحجار، والحنظل ...)، وقد جرت عادة العرب على أخذ الصور البيانيّة من البيئة، والتمثُّل بها في كلامها؛ فالفضاء الفسيح الممتدّ أمامه بمشاهده ومكوناته يجعله قادراً على اختيار ما يشاء بعين فاحصة؛ فينتقي أقربها أو أقدرها على تمثيل معانيه وإبرازها على الوجه المطلوب، مما جعل العرب – في الماضي – أخصب خيالاً وأكثر تشبيهاً واستعارة، وأقدر على الكناية والإشارة، وغيرها من فنون البلاغة.

فـ (كرب بن صفوان) رمز للجيش بالتراب للدلالة على الكثرة، وجرت العادة على تشبيه الجيوش الكثيفة بالتراب والرمال وجنح الليل؛ فالتشبيه بين التراب والجيش قائم على الكثرة التي يخطئها العدّ، وكنّى بالشوك عن السلاح لما بينهما من الحدّة والقدرة على النفاذ في الجسم وإحداث الأثر المؤلم.

وكنّى بالخرقتين اليمانيتين عن الفرقتين القتاليتين اليمانيتين، ولا أبلغ من هذا في هذه الرسالة الصامتة، وكانت الأقمشة قديماً تُعرف بالبلاد التي تُصنع فيها لقلتها ومن ثم كانت تُعرف من أول نظرة أنّها من بلاد كذا أو كذا، وهذا الاختيار أعان (الأحوص) على فهم الدلالة، خاصّة أن (كرباً) جعلها اثنتين.

وشبّه (الحجارة السود) بالليالي، حيث اختار عدداً معيّناً جعلت الدلالة واضحة، فبين لون الحجارة والليل شبه هو السواد، والحجارة في الطبيعة لها ألوان شتّى، واختيار السوداء منها مناسبا للإشارة إلى الليل؛ فحدّد بها وقت وصول الغزاة، وهي عشر ليالٍ.

و(رؤوس الحنظل) شبّه بها قادة الجيش الزاحف نحوهم، والحنظل نبات مرّ، ولونه لا يدلّ على ليل أو وقت شأن الحجارة السود، ولكنّ الأقرب أن

يدلّ على رأس بشري شديد المراس في الحنكة والعداوة، ولا سيّما أنّ شكلها المستدير أشبه بالرأس، وهذا يشير إلى وجود قادة شديدي المراس والحنكة على فِرَق الجيش.

ثم جعل (الخرقة الحمراء) كناية عن سيّد بني تميم، وقائدها الجسور (الحاجب بن زرارة)، وهو فارس معروف بشدّة البأس والبطش، وهو شديد العداوة لـ(بني عامر)؛ فأدرك (الأحوص) دلالة الخرقة الحمراء وفهم الكناية المضمرة فيها، فاللون الأحمر رمز البطش والقوة؛ فتوقّع أن يكون هو (الحاجب) لما بينهم من العداوة والثأر وربما اللون الأحمر إشارة على ثوب كان يرتديه هذا الفارس في القتال، أو لراياتهم في الحرب، ولكن أيّاً كانت الصلة بين لون الخرقة وهذا الفارس فقد فهم (الأحوص) أنّه (الحاجب بن زرارة) سيّد بني تميم.

٣- رُوي أنَّ (جميل بن معمر) قال لـ(كثيّر عزة): لو صرتَ إلى (بثينة) فأخذتَ لي عنها موعداً. فقال: إنَّ غاشية عمها كثير(١). فقال: إنَّ الحيلة تأتي من وراء ذلك. فأطرق (كثير) إطراقة ثم قال: متى كان آخر عهدك بها؟ قال: يوم كذا، في وادي يُقال له (الدّوم) فأصاب ثوبها شيء فغسلته.

فأتى (كثير) الحي فجعل يتحدّث إليهم حتّى أتى عمّها فحادثه وقال: أسمعك أبياتاً في (عزّة) حضرتني. فقال: هاتها. فأخذ ينشد بصوت مرتفع بحيث تسمعه (بثينة):

أقُولُ لَها يا عَزُّ أَرسَلَ صاحِبي ... عَلى نَأيِ دارٍ وَالرَسولُ مُوَكَّلُ

بِأَن تَجعَلي بَيني وَبَينَكِ مَوعِداً ... وَأَن تَأمُريني بِالَّذي فيهِ أَفعَلُ

وَآخِرُ عَهدٍ مِنكِ يَومَ لَقيتِني ... بِأَسفَلَ وادي الدَّومِ وَالثَوبُ يُغسَلُ

(١) يقصد أن الضيوف يغشونه؛ فداره مليء بالزوار وطالبي الحاجات.

فعلمت (بثينة) أنّه يقصدها؛ فصاحت: "اخسأ اخسأ" [١]، فصاح بها عمّها: "ما خسأت"؟ قالت: "كلباً يعترينا ليلاً ثم رأيته الليلة". فرجع (كثير) إلى (جميل) فأخبره أنّ الموعد: الليلة [٢].

أرسل (كثير) رسالة شعريّة إلى (بثينة) يخبرها فيها أنّه رسول من صاحبها (جميل) يطلب منها تحديد موعد للقاء، ومن باب التمويه خاطب (عزة) وهو يريد (بثينة)، وقد ضمن الرسالة شفرة عن طريق التلميح [٣].

فقد ذكر (كثير): غسل الثوب، ووادي الدوم، فقد ألمح إلى المكان وإلى الحادثة؛ فأدركت (بثينة) أنها المعنيّة وليست (عزّة) المذكورة، فقد استدعى (كثير) ذاكرتها وربما وشجونها، وعليه فإنّ هذا الخطاب المُعَمَّى صِيغ بعناية تامّة، وضمّنها تلميحاً لن يفهمه إلا (بثينة)؛ فلم يطّلع أحد ممن كان حاضراً على حادثة وادي الدّوم.

وقد جاء الرّدّ سريعاً ومشفّراً وموجزاً، يقوم التعمية فيه على فنّ (الكناية)؛ فإن (الكلب) المذكور أرادت به (جميلاً)، فقد كنّته به، وهي رسالة لن يفهمها إلا (كثير)، بل حدّدت موعد اللقاء في قولها (رأيته الليلة).

---

(١) اخسأ: كلمة تُقال لزجر الكلاب لتبتعد، الخاسئُ من الكلابِ: البعيدُ الذي لا يُترَكُ أَن يدْنُوَ من الناسِ.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي، شرحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، (ط٢)، بدون تاريخ، ١/٣٠.

(٣) التلميح: هو أن يشير الشاعر أو الناثر إلى قصّة أو مثل أو شعر دون أن يورد ألفاظه. انظر: علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتّاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة، (ط٢)، سنة ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م، ص٢٧٢.

٤- كتب رجل أسير في حي من أحياء العرب رسالة شعريّة إلى قومه ينذرهم غارة قريبة يعدّها ذلك الحي سرّاً [١]:

خَلّوا النّاقَةَ الحَـمْرَاءَ واقْتَعِدُوا العَودَ الذي فِي جَنَابَي ظَهْرِهِ وَقْعُ [٢]

إنَّ الذّئابَ قَدْ اخْضَرّتْ بَرَاثِنُهَـا والنّاسُ كُـلُّهُمْ بَكْرٌ إذَا شَبِعُوا [٣]

قال أبو عثمان الأشناندانى معلّقاً على البيتين السابقين: " أراد بالنّاقة الحمراء: الدهناء، هي أرض لبني تميم تشبيهاً لها بالنّاقة لتأتيها وسهولة ركوبها، لأنها أرض فلاة سهلة، واقتعدوا العود: أي اسكنوا الصمان: وهو بلد لبني تميم أرضها غليظة صلبة، وإنّما شبّهه بالعود تذكيراً اسمه، والعود: المسنّ من الإبل، وجعل في ظهره وقعاً وهو: آثار الدّبر في ظهر البعير تشبيها للصمّان بما قد وُطئ وكثرت آثار النّاس فيه بظهر بعير موقّع، فهو يقول لهم: امتنعوا بركوب الصمّان لأنّه وعر صلب يشقّ على الخيل أن تطأه والدهناء ممكنة.

وأراد بالذّئاب: القوم الذين يغيرون عليهم شبّههم بالذئاب لخفّتهم وحرصهم على الغارة، وقوله: قد اخضرّت براثنها: يريد، قد اخضرّت الأرض وكثر العشب فيها وأمكن الغزو، والأقدام مخضرّة من الكلأ؛ فجعل

---

(١) كتاب معاني الشعر، أبو عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى، دار الكتب العلميّة، بيروت، (ط١)، سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص٤٢.

(٢) اقتعدوا: اركبوا القعود من الإبل، وهو ما اتّخذه الراعي لحمل متاعه. العود: المسنّ من الإبل. جنابي: جانباه. الوقع: آثار الدّبر على ظهر الدّابة.

(٣) البراثن: مفردها بُرْثُن: مخالب السَّبُع أو الطَّير الجارح وتستعمل مجازًا في سياق ما يضرّ من العلل أو الظّروف الاجتماعيَّة، أو في الدّلالة على العدوان والشَّراسة. بكر: قبيلة بكر بن وائل وهي أشد القبائل عداوة لبني تميم.

الأقدام براثن، وقوله: والنّاس كلهم بكر إذا شبعوا، يريد: أنّ بكر بن وائل أشدّ الناس عداوة لبني تميم، يقول: إذا شبعوا وأخصبوا فعداوته كعداوة بكر"(١).

وقال أبو علي القالي معلّقاً على قول الشاعر: "والنّاس كلهم بكر إذا شبعوا": يريد كلّ النّاس عدو لكم إذا شبعوا كبكر بن وائل، ولم يرد الشاعر هذا المعنى؛ لأنّ الناس كلّهم لم يكونوا عدوّا لبني تميم ولا أقلّهم، وإنّما يريد أنّ النّاس إذا شبعوا هاجت ضغائنهم وطلبوا الطوائل والثارات في أعدائهم؛ فكانوا لهم بكر بن وائل لبني تميم"(٢).

الرسالة المُعَمَّيَة السابقة قامت على البلاغة التي تعين على التأويل، وترسم المعاني التي يريدها المُرسِل؛ فقد شبّه الأرض التي يجب أن يغادروا إليها بـ(الناقة الحمراء) بجامع السهولة والتمكّن منها على سبيل الاستعارة التصريحيّة؛ فالأرض التي يسهل على العدو السير فيها والقتال عليها ليس في صالح من يريد الدّفاع عن نفسه وممتلكاته.

وشبّه الهجرة إلى الأرض الغليظة الصلبة بـ(ركوب العود) على سبيل الاستعارة التصريحيّة، واستتبع ذلك بالامتداد البلاغيّ للصورة التي تقرّب المعنى وتجعل تأويله أكثر دقّة منطقاً وتجعل الرسالة أقوى تشفيراً حين جعل ظهر العود (موقّعاً) بالدّبر وأراد بها وقع الأقدام أو آثارها على الأرض، وهو تشبيه على سبيل الاستعارة التصريحيّة، وقوّة التشفير في هذا الامتداد البلاغي هو جعل ظهر القعود موّقعاً يصرف السامع إلى المعنى القريب، وهنا تتجلّى بلاغة التورية المستخدمة؛ فلفظة (وقع) تحتمل معنى (الدّبر) وهو المعنى

---

(١) كتاب معاني الشعر، ص ٤٢ – ٤٣.

(٢) كتاب ذيل الأمالي والنّوادر، أبو علي إسماعيل القالي البغدادي، در الكتب العلميّة، بيروت، بدون تاريخ، ص١٨.

القريب المتبادر إلى الذّهن، في حين المراد المعنى البعيد وهي الأرض الصمان التي بها أثر وطء الأقدام.

وشبّه الجيوش المغيرة بالذئاب على سبيل الاستعارة التمثيلية التي يتبرز الخفّة والشراسة والحرص على الغارة وعملهم في تناغم، وهي صورة واقعيّة تعمّق المعنى، وتعطي صورة واضحة عن وحشيّة الغزاة.

واخضرار البراثن: كناية عن أقدامها التي أراد بها اخضرار الأرض، إشارة إلى سقوط المطر وظهور العشب والكلأ مما يدلّ على انتشار الخصب في أرض الغزاة، وفترة الخصب من أفضل أوقات الغزو عند العرب لوفرة الغذاء للإنسان والحيوان، وهذه إشارة أخرى على أنّ العدو المتربّص في أفضل حالاته النفسية والبدنيّة. ومما يقوّي تأويل اخضرار البراثن باخضرار الأرض قوله: (والنّاس كلهم بكر إذا شبعوا)؛ فهذه العبارة تستدعي أن يكون الاخضرار المذكور هو اخضرار الأرجل الناتجة عن اخضرار الأرض.

والتشبيه البليغ في العبارة الأخيرة (والنّاس كلهم بكر إذا شبعوا) فقد شبّه عداوة الناس في حالة الشّبع والخصب بعداوة بكر بن وائل لبني تميم، وفي هذا التشبيه إشارة إلى أنّ العدو الغازي في نفس درجة عداوة بني بكر لتميم، وهذا تحذير بالغ، ودعوة ضمنيّة للاستعداد الكامل والتخطيط السليم الذي يكفل لهم النصر وهزيمة الأعداء.

هذه الرسالة الشعريّة حملت في خطابها تحذيراً قويّاً، وخطّة عامّة للنجاة؛ فهي تخبرهم بعدو يغزوهم في القريب العاجل في دارهم – وغالباً هم القوم الذين أسروه – وهذا العدو شديد المراس، شرس لأبعد الغايات، اختار الوقت الملائم، وأكمل استعداده، وهم قوم شديدو العداوة لهم مع الفجور في خصومتهم، وأوصاهم بالخروج من أرضهم السهلة التي لا يجد العدو فيه

مشقّة الحركة والقتال، وأوصاهم بالنزول في أرض (صمان) معروفة بصعوبتها وعسرها على الغزاة والمغيرين. وقد استعان بصور البيان وألوان البديع في رسم المعاني وتحديدها بدقّة.

٤- أرسل (امرؤ القيس) مع عبد له إلى امرأة يريد نكاحها هديّة قوامها (زقّ سمن، وزقّ عسل مصفّى، وحلّة من عصب[١])، ولكن العبد نزل في موضع ماء؛ فنشر الحلّة ولبسها فتعلّقت بشجرة فانشقّت، وفتح الزقّين فأطعم أهل ذلك الماء، ثم قدِم على حي المرأة فدفع إليها هديّتها.

ولمّا اطّلعت المرأة على الهديّة حمّلت العبد إلى سيّده – امرؤ القيس – رسالة شفهيّة؛ فقالت له: "اعلمْ مولاك أنَّ أبي ذهب يقرّب بعيداً ويبعّد قريباً، وأنّ أمي ذهبتْ تشقّ النفس نفسين، وأنّ أخي يراعي الشّمس، وأنّ سماءكم انشقّت، وأنّ وعاءيكم نضبا ".

فقدم العبد إلى سيّده وأخبره بالرسالة. فقال (امرؤ القيس): أمّا قولها: (إنَّ أبي ذهب يقرّب بعيداً ويبعّد قريباً) فإنَّ أباها ذهب يحالف قوماً على قوم، وأمّا قولها: (إنّ أمي ذهبتْ تشقّ النفس نفسين) فإنّ أمّها ذهبتْ تقبّل امرأة نفساء، وأمّا قولها: (إنّ أخي يراعي الشّمس) فإنّ أخاها في سرْح له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشّمس ليروح به، وأمّا قولها: (إنّ سماءكم انشقّت) فإنّ البرد الذي بعثت به انشقّ، وامّا قولها: (إنّ وعاءيكم نضبا) فإنّ النحيين[٢] الذين بعثتُ بهما نقصا، فأصدقني القول؛ فقال العبد: يا مولاي إنّي نزلت بماء

---

(١) ثوب العصب: هو ضرب من البرود يصبغ غزله ثم يُنسَج. معجم المعاني، الشبكة العنكبوتية، مادة (عصب).

(٢) النحيين: مثنّى النّحْي، والنَّحْيُ: زِقّ السّمْن، أو العَسَل ونحو ذلك. معجم المعاني، الشبكة العنكبوتية، مادة (نحي).

من مياه العرب؛ فسألوني عن نسبي فأخبرتهم إنّي ابن عمّك، ونشرت الحلّة فانشقّتْ، وفتحت النحيين فأطعمت منها أهل الماء(١).

بعثت هذه المرأة إلى خطيبها – امرؤ القيس – بهذه الرسالة الشفهيّة، وحمّلت الرسالة للعبد نفسه، وكشفتْ في فحواها أنّ العبد عبث بالهديّة وتصرّف فيها، وحتّى لا يدرك العبد ذلك فقد شفّرت الرسالة موّهتها بأمور منسجمة متّسقة حتى لا يؤوّل العبد تلك الألغاز التي في ظاهرها أخبار عاديّة وفي باطنها من قبلها – للبيب الفطن – معانٍ أخرى.

وقد قامت هذه الرسالة على الكناية، وأدرجتْ في صدرها كنايات حقيقيّة أتبعتها بكنايات شفّرت فيها خطاباً تتضمّن شكوى العبد إلى سيّده، والتصريح هنا محال لكون حامل الرسالة هو المراد فضح أمره عند مولاه، وكشف سوء تصرّفه.

وكانت هذه المرأة على قدر من الذكاء اللّمّاح، وصفاء الذّهن، والنّباهة؛ فقد اختارها (امرؤ القيس) لينكحها بعد أن اختبر عقلها وتوقّد قريحتها، وهي تدرك ذكاء خطيبها ومقدرته على الفهم والتأويل؛ فجعلت الرسالة كلها كنايات ليكون ذلك دافعاً له على البحث عن المعاني المرادة التي تستلزمها تلك الكنايات، وقد ابتدأت بأمور سهلة، ثم تَدَرَّجت لتبلّغ خطيبها أنّ العبد قد خان الأمانة فشقّ الثوب، ونقص السمن والعسل.

وقد كنّتْ عن تحالف أبيها مع قوم ضد آخرين بقولها: (إنَّ أبي ذهب يقرّب بعيداً ويبعّد قريباً)، فالحِلْف يستدعي قيام صلات قربى بين المتحالفين تنزلهم منزلة صلة القرابة، والحِلْف والجوار من الأمور الاجتماعيّة المقدّسة

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: حن نور الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، بدون تاريخ، ١٥٦/٣.

في شرف العرب. كما أنّ الحِلْف ضد الآخر يُبْعِد الصلات مع الآخر ويمزّقها.

وكنايتها عن مساعدة أمها لامرأة في الولادة (أمي ذهبتْ تشقّ النفس نفسين) فذات دلالة واضحة؛ فنفس الحامل تنشقّ عن نفس جديدة وهو المولود، وهي كناية ليست ببعيدة عن الفهم لأصحاب البصيرة باللغة.

وكنايتها عن خروج أخيها إلى المرعى بسائمته (أخي يراعي الشّمس) فيها تعمية بعض الشيء؛ فمراعاة السماء ليست بالضرورة أن تدلّ على الرعي وانتظار الغروب للعودة، والكناية إطلاق لفظ وإرادة لازم معناه والرعي ليس من مستلزمات معاني مراعاة السماء، وهذه الكناية خطوة أولى نحو تشفير المعاني التي تريد هذه المرأة إضمارها عن طريق الإغراب في الكناية والتمحّل فيها، ولكن (امرؤ القيس) أدرك مرمى الكناية؛ فهو يدرك أنّ أخاها يرعى إبله، ومراعاة الراعي للسماء ليس للمطر، فلا يُرجى المطر في غير أوانه، ولكنه يراقب الشمس ليعود بالسائمة قبل حلول الظلام خوفاً عليها وطلباً لسلامتها؛ فالويل لمن يتأخر عن السابلة ليلاً.

ثم كنّتْ عن شقّ الحلّة بقولها: (إنّ سماءكم انشقّت) فجعلتها امتداداً لذكر السماء في الكناية السابقة من باب التمويه حتى لا يفطن العبد، و(امرؤ القيس) يعلم أنّ السماء الحقيقيّة لم تنشقّ، وحين كنّتْ عن نقصان السمن والعسل بقولها: (وأنّ وعاءيكم نضبا) أدرك أنّ المراد بالسماء هي الحلّة، وبالوعاءين السمن والعسل؛ فعلم أنّ العبد قد عبث بمحتويات الهديّة.

٥- أسرتْ (طيء) شابّاً من شباب العرب، فقدم عليه أبوه وعمّه ليفديّاه، ولكن (طيء) اشتطّت عليهما في الفداء، وبالغت في طلب المال؛ فأعطاهم أبو الأسير عطيّة فلم يرضوها؛ فقال أبوه: [موجّهاً الكلام لطيء ولكنه في الحقيقة

يريد ابنه] لا، والذي جعل الفرقدين [١] يصبحان ويمسيان على جبيل طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم. ثم انصرفا، فقال الأب للعمّ: لقد ألقيت إلى ابني كليمة لئن كان فيه خير لينجوّنَّ بها؛ فما لبث أن نجا، وطّرد قطعة من إبلهم فذهب بها"[٢].

هذه رسالة عجيبة، وفي غاية التعقيد، وليس من المتيسّر تفكيك ما فيها من خطاب يحوي وصيّة وخطّة للهرب، وهي رسالة موجّهة إلى خصومه في ظاهرها ردّا على مغالاتهم ورفضهم لقبول ما اقترحه عليهم من فداء، وفي باطنها رسالة إلى ابنه، وقد ذكر الأب لأخيه – عمّ الأسير – بأنّ ابنه لو فيه (خير) فسيفهم الرسالة وينجو. و(الخير) هنا قصد به الذّكاء الذي يعينه على فهم الرسالة؛ فهو يعوّل على ذكائه، ويفترض ذلك فيه.

فقد أمره بالخروج مساءً مهتدياً بالفرقدين، وأن يكون وقت بلوغه الجبل فترة ظهورهما بوضوح، أي: بعد توغُّل الليل وأن يصبح في مكان الآخر، وألا يزيد على هذا الوقت ليضمن الخروج الآمن والبُعْد عن مضارب آسريه. وقوله: (لا أزيد على ما أعطيتكم)؛ ففي ظاهر التعبير هو ما اقترحه عليهم من مال الفدية، ولكنه قصد توصية ابنه إلى أخْذ ما كان ينوي إعطائهم من إبل طيء، ففعل، لأنّ المأسور همّه في الفرار والنجاة والبُعْد عن كل ما من شأنه تعطيل السلامة.

---

(١) الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، ولكنهما يطوفان بالجدي، وقيل: هما كوكبان قريبان من القطب، وقيل هما كوكبان في بنات نعش الصغرى، معجم المعاني، الشبكة العنكبوتية، مادة (فرقد).

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألوسي، شرحه: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١/٣٠ –٣١.

والأغلب أنّ أباه وعمّه كانا ينتظرانه في مكان ما؛ فلحق بهما هناك، وفرّوا جميعاً إلى مضاربهم فبلغوها سالمين.

الأب كنّى عن الوقت بـ(ظهور الفرقدين صباحاً ومساءً)، وفي هذه إشارة إلى الفرار خلسة في هذا الوقت عن طريق هذا الموضع (جبيل طيء)، والفرقدان لا يغيبان، وهذه دعوة إلى عدم التمهُّل في السير، بل مواصلة الجد فيه حتى يأتيه الصباح وهو في موضع بعيد عن آسريه، وربما أشار إليه بأنّهما ينتظرانه مسيرة هذه الفترة.

وقد وظّف الرجل معطيات البيئة؛ فاختار منها ما يلائم الحوار وسياقاته حتى لا يلفت انتباه القوم إلى المعاني المشفّرة في كلامه، وقد نجح في ذلك وحقّق ما كان يصبو إليه.

٦- قيل إنّ رجلاً كثير المال صحب عبدين في سفر، فلمّا توسطا الطريق همّا بقتله، فلمّا تيقّن من أنّه ميت لا محالة قال: أقسم عليكما إذا كان لابد لكما من قتلي أن تمضيا إلى داري وتنشدا ابنتيّ هذا البيت. قالا: وما هو؟ قال:

مَنْ مُبْلِغٌ بِنْتَيّ أنَّ أبَاهُمَا ... للهِ دَرُّكُمَا ودرُّ أبِيكُمَا

فقال أحدهما للآخر: لا نرى بأساً، فلما قتلاه جاءا داره، وقالا لابنته الكبرى: إنّ أباك لحقه ما يلحق الناس، وآلى علينا أن نخبركما بهذا البيت، فقالت الكبرى: ما أرى فيه شيئاً تخبراني، ولكن اصبرا حتى استدعي أختي الصغرى. فاستدعتها فأنشدتها البيت؛ فخرجت حاسرة وقالت: هذان قتلا أبي يا معشر العرب، ما أنتم فصحاء؟ قالوا: ما الدّليل عليه؟ قالت: المصراع الثاني يحتاج إلى أوّل، والأوّل يحتاج إلى ثانٍ؛ فلا يليق أحدهما بالآخر. قالوا: فما ينبغي أن يكون: قالت: ينبغي أن تكون:

مَــنْ مُبْلِغٌ بِنْتَيّ أنَّ أبّاهُمَا أمْسَى قَتِيْلاً بِالفَــلاةِ مُجَنْدَلا
للّهِ دَرُّكُــمَا ودرُّ أبِيكُــمَا لَنْ يَبْرَحَ العَبْدَانِ حَتَّى يُقْتَلا

فاستخبروهما فوجدوا الأمر كما ذكرت [١].

ورد في الآثار الأدبيّة ما يدلّ على الفطنة وحسن التقدير في إدراك المحذوف من الكلام، وقد ذكره البعض باسم (الإرصاد)، وهو اصطلاح بلاغيّ جمعت له الشواهد من كتب الأخبار الأدبية، و(الإرصاد) فنّ بلاغيّ من مباحث علم البديع، وحدّه عند علماء البلاغة: "هو أن يُجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدلّ على العجز إذا عُرف الروي"[٢].

ويقول أبو هلال العسكريّ في هذا الشأن: "هو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعراً أو عرفت رواية، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه"[٣].

وقد أورد الباحث البلاغيّ (بسيوني عبد الفتّاح فيود) ضمن شواهد مبحث (الإرصاد) قصّة هجاء جرير للفرزدق فقال: "وتحكي لنا كتب التراث حكايات عن فطنة الشعراء ونقّاد الكلام، وكيف كانوا يدركون الشطر الثاني كله، وليس القافية وحدها بمجرّد سماع الشطر الأوّل من البيت، ومن ذلك ما رُوي أنّ جريراً أنشد بحضرة الفرزدق قصيدته التي هجا بها الراعي النميري، التي يقول فيها:

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ١/٣٢ -٣٣.

(١) معجم المصطلحات البلاغيّة وتطورها، أحمد مطلوب، طبعة المجمع العلمي العراقي، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ١/٩٤.

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ص٣٨٢.

فَغُضّ الطّرفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْر فَلا كَعَبَاً بَلَغْتَ وَلا كِلابَا

فلمّا انتهى إلى قوله:

لَهَا بَرْصٌ بِجَــانِبِ اسْتَكَيْهَا .....

أدرك الفرزدق تمام البيت؛ فوضع يده على عنفقته[١] – وكان بها شيب – وقال: قبّحك الله، قبل أن يتلفّظ جرير بعجز البيت: (كَعَنْفَقَةِ الفَرَزْدَقِ حِــيْنَ شَابَا)[٢]

فقد أدرك الفرزدق الشطر الثاني قبل أن يتلفّظ به جرير.

وقد أورد القلقشندي أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عبّاس –رضي الله عنه– قوله: تَشُطُّ غَداً دارُ جيرانِنا.....

فقال ابن عبّاس –رضي الله عنه–: (وَلَلدّارُ بَعدَ غَدٍ أَبعَدُ)، فقال عمر: "والله ما قلت إلا هكذا"[٣]. والشاهد هنا فطنة ابن عبّاس –رضي الله عنه– إلى الشطر الثاني من البيت قبل أن يتفوّه به الشاعر.

وقال عمارة بن عقيل عن بصر وحذق المأمون بــن هــارون الرشــيد بالشعر: "من ذا يكون أفرس منه، وإنّا لنشد أوّل البيت فيسبق إلى آخره مــن غير أن يكون سمعه"[٤].

---

(١) العنفقة: شعرات صغار بين الشفة السفلى والذقن، جمع: عنافق، معجم المعاني، الشبكة العنكبوتية، مادة (عنفق).

(٢) علم البديع – دراسة تاريخيّة فنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، (ط٤)، سنة ١٤٣٦ه – ٢٠١٥م، ص١٦٦.

(٣) صبح لأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: يوسف علي طويل، طبعة دار الفكر، دمشق، (ط١)، سنة ١٩٨٧م، ٣١٨/١٤.

(٤) أخبار الأذكياء، جمال الدّين عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزي، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط١)، سنة ١٤٠٤هـ – ٢٠٠٣م، ص٧١.

إنّ هذه الأخبار تدلّ على إمكانيّة تأويل الأبيات الشعريّة المحذوفة أو المضمرة، أو قبل أن يتلفّظ بها شاعرها، وهذا ما يفسّر تمكُّن ابنة الرجل من تأويل الرسالة المُعمَّية بإدراكها المصراعين المحذوفين من خلال عدم الملاءمة بين مصراعي البيت المذكور.

والأمر ليس قاصراً على ذكاء الابنة فحسب، بل في صحّة تركيب البيت (الرسالة) بحيث يتيح كل مصراع تأويل مصراعه المحذوف، إلى جانب قرينة موت الأب في الطريق؛ فلو كان موتاً طبيعيّاً لأرسل الأب القتيل رسالة شفهيّة نثريّة فيما هو أكثر من هذا البيت (الغريب)، ولما احتاج أن يرسل بيتاً واحداً من الشّعر لا يتلاءم شطراه، أو أن يرسل بيتاً واضح المعنى، وهذا مما دفع الابنة إلى فهم الرسالة المضمرة.

وقد قام التأويل البلاغي في النص السابق على بلاغة (الإرصاد) الذي كان له دور واضح في كشف الرسالة المضمرة بذكاء في البناء الشعري للبيت المفرد؛ فقد اعتمد الرجل القتيل على تقنية (الإرصاد) في إيصال رسالته، وهو فنّ بلاغي يقوم على التأويل، ويتطلّب قدراً من الذكاء وحضور الذّهن، لأنّ التأويل أحياناً يكون أثناء الإنشاد.

وهنا قامت البلاغة بدور محوريّ في فهم الرسالة عن طريق التأويل، وهذا النّوع يعدّ بحقّ من أدقّ الأبواب وأجلّها في الرسائل المشفّرة؛ حيث يطلب من الشخص أن يؤول كلاماً قائماً في نفس من أرسل، وليس تفكيك طلاسم ماثلة، أو شرح لغز.

٧- رُوي أنّ (ابن منقذ) كان يعمل عند (محمود بن صالح) صاحب حلب؛ فوقعتْ له حادثة فهرب إلى طرابلس، فأرسل إليه ابن صالح واستعطفه ليعود إليه ولكنه خاف منه فلم يعد، فأحضر (ابن صالح) رجلاً من أهل حلب

صديقاً لـــ(ابن منقذ) ومن أهل مودته وخاصّته، وأجلسه بين يديه، وأمـــره أن يكتب إلى (ابن منقذ) رسالة عن نفسه، يوثّقه من جهة (ابن صالح)[1] ويطمئنه فيه ليعود، فاضطر للكتابة خوفاً من شرّ الأمير، وهو يعلم أنّ الرجل يضمر شرّاً، فإن عاد (ابن منقذ) لهلك.

ففكر في حيلة يحذّره بها؛ فهداه تفكيره إلى وضع إشارة مبهمة رجاءً أن يفهمها (ابن منقذ) فينجو، فكتب في آخر الرسالة عبارة: (إنَّ شاء الله تعالى) – بتشديد نون إنّ وكسر همزتها – ثم قرأها (ابن صالح) وأرسلها إلـــى (ابـــن منقذ).

فلمّا صارت في يد (ابن منقذ) وعلم ما فيها أحسّ بالأمان، ووثـــق فـــي كتاب صديقه الذي يعلم أنّه لن يغدر به؛ فعزم على المسير إلى حلب، وكـــان عنده ولد أخذ الكتاب وأعاد النّظر فيه مراراً، فقال له: يا أبت مكانـــك، فـــإنّ صديقك قد حذّرك وقال: لا تعد. فقال (ابن منقذ): وكيف؟ قال: إنّه كتـــب (إنَّ شاء الله تعالى) في آخر الكتاب وشدّد إنَّ وكسرها وضبطها ضبطاً صحيحاً لا يصدر مثله عن سهو، ومعنى ذلك أنّه يقول لك: (إنّ المـــلأ يـــأتمرون بـــك ليقتلوك)[2]، وإن شككتَ في ذلك فأرسل إلى حلب[3].

وقيل إنّ (ابن منقذ) بعث برسالة إلى صديقه يشكره فيها، وختمها بعبارة (إنَّا الخادم المقرّ بالإنعام) بتشديد نون إنَّا؛ فلمّا قرأها صديقه في حلب فطـــن

---

(١) أي: يجعله يثق في ابن صالح بأنّه لن يضره متى عاد.

(١) هو قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ ﴾ ، الآية: ٢٠، سورة القصص.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، ضياء الدّين بن الأثير، طبعة دار نّهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، بدون تاريخ، ٩٢/٣ – ٩٣.

إلى أنَّ (ابن منقذ) قد تنبّه للتحذير، وأنّه يردّ بـــ (إنَّا لنْ ندخلها أبداً ما داموا فيها)[١]، واطمأنّ إلى أنّه لن يعود إلى حلب في ظل وجود (ابن صالح).

قامت هذه الرسالة على بلاغة (الإشارة) التي يعرفها محمد أحمد قاسم بأنّها " كناية تتوسط بين التلويح والرمز بقلة الوسائط فيها وبوضوح نسبي في العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المراد "[٢]، وهي تتميّز بأنها قليلة الوسائط، فتدلّ على المعنى المراد دلالة مباشرة كأنها تومئ إليه، وقد أشار الكاتب بـــ(إنّ) المشدّدة المكسور في غير سياقها إلى الآية الكريمة التي حُذّر فيها موسى عليه السلام[٣]، وهي إشارة خفيّة أخفاها الكاتب بعناية فائقة خوفاً من بطش السلطان، وهي من الإشارات النادرة الرائقة في الأخبار الأدبيّة، وكان الردّ بمثل تلك الإشارة عن طريق كسر همزة (أنا) فجعلها (إنّا) مع تشديد النون إشارة إلى الآية الكريمة التي أكدّ فيها بنو إسرائيل أنّهم لن يدخلوا القرية خوفاً من الجبّارين[٤]، فأدرك صديقه أنّه فهم الرسالة وأدرك أنّ الردّ هو عدم عودته إلى حلب في ظل وجود (ابن صالح). وهكذا أدّت البلاغة دوراً مهماً في هذه الرسالة المُعَمَّاة.

---

(١) هو قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ الآية: ٢٤، سورة المائدة.

(٢) كتاب علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب، لمؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠٣م، ج١ص٢٥٠

(٣) انظر: تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط١)، سنة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ج١٨ص١٩٨ وما بعدها.

(٤) انظر: المصدر السابق، ج٨ص٣٠٢.

خاتمة

إنّ وجود الرّسائل المُعَمَّاة في التراث لدليل على الاعتراف بفطنة الآخرين، واحترام عقولهم وذكائهم، وفيها مجال للمتلقّي أن يتخيّل، ويقيم العلائق بين الرّموز ومدلولاتها للوصول إلى فحوى الرّسالة ومغزاها، حيث تعتمد هذه الرّسائل على الخيال كعنصر رئيس سواء في رسم المعاني من المُرسِل، أو في تأويلها من المتلقّي؛ فهي لعبة بين المُرسِل والمتلقّي المؤوّل.

إنّ دور المتلقّي أساس في هذه الرّسائل، فهو الذي يناط به كشف غموضها، وإعادة بنائها في صورتها التي أرادها المُرسِل، ويتوقّف نجاح تأويل خطاب الرّسالة المضمر على قابليّة النّص للتأويل، وانفتاح النّص على المتلقّي، وعلى مقدرة المتلقّي على تجاوز الرّموز الظاهرة والنّفاذ إلى العمق واستشفاف المقصود.

إنّ تأويل دلالة الرّسالة يجد مجاله الأرحب في النّصوص الأكثر رموزاً وغموضاً، فالتعمية تخلق جوّاً من (التشفير)، حيث يعتمد المُرسِل على رموز مغلقة مفتاحها عناصر البلاغة، وهذا الغموض يشكّك في الدلالة الظاهريّة مما يقود الذّهن إلى المعاني المحتملة.

وتأويل الرسالة المُعمَّاة ليس وقفاً على ذكاء المتلقي فحسب؛ بل للسياق والموروث الثقافي أثر كبير في فهم الرسالة وتفكيك طلاسمها.

والمعاني التي يصل إليها المتلقّي لا تنتج عن القراءة أو التحليل شأن نظريات جماليات التلقّي الحديثة، بل إنّ المتلقّي المؤوّل يبحث عن معنى مخفيّاً سلفاً في النّص، ويسعى إلى كشفه عن طريق ربط الدّلالات الرمزيّة ربطاً منطقيّاً؛ فالمؤوّل حين يتلقّى الرّسالة تستحضره أسئلة حول المقصود بكل رمز، وهنا يتجلّى أثر إدراك البلاغة ودورها في كشف المعاني المستترة.

ومن دواعي بروز هذا النّوع من الرّسائل الرّغبة في التمويه حين يكون التصريح متعذّرا لعدم المقدرة على الكلام، وتكثر في التحذير في الغارات والحروب، وبين العشّاق لحاجة هذين الأمرين للستر والإخفاء، وقد تأتي هذه الرسائل لفظيّة، أو عناصر من البيئة كالحصى والشوك ونحو ذلك، واللفظيّة قد تكون شفهيّة أو مكتوبة، وقد تأتي نثراً مثلما قد تأتي شعراً.

وتقوم هذه الرّسائل على ثلاثة عناصر رئيسة، العنصر الأول: عدم المقدرة على التصريح أو الكلام أو الكتابة لأسباب مختلفة كالخوف أو الأميّة، أو الإجبار على عدم الكلام، والعنصر الثاني: الدّقّة في اختيار الرّموز اللفظيّة أو غير اللفظيّة، والعنصر الثالث: مقدرة المتلقّي على تحليل تلك الرسائل والربط بين الرّموز ومدلولاتها.

المراجع

١- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بدون تاريخ.

٢- حسان، تمّام، الأصول، دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو – فقه اللغة –البلاغة، دار الثقافة، عالم الكتب، القاهرة – مصر، سنة ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٣- ابن الجوزي، جمال الدّين عبد الرحمن بن عليّ، أخبار الأذكياء، طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط١)، سنة ١٤٠٤هـ – ٢٠٠٣م.

٤- جاد المولى، محمد أحمد، وآخران، أيام العرب في الجاهليّة والإسلام، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، بدون تاريخ.

٥- يقطين، سعيد، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، (ط٢)، سنة ٢٠٠١م.

٦- الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، (ط٢)، بدون تاريخ.

٧- ابن سليمان الكاتب، أبو الحسين إسحق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، مطبعة المعاني، بغداد، سنة ١٩٦٧م.

٨- برّو، توفيق، تاريخ العرب القديم، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ودار الفكر، دمشق – سوريا، (ط٢)، سنة ١٩٩٦م.

٩- الزين، محمد شوقي، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠م.

١٠- مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، (ط١)، سنة ١٩٩٣م.

١١- شرشار، عبد القادر، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، سنة ٢٠٠٦م.

١٢- مفتاح، محمد، تحليل الخطاب والنص الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، (ط٣)، سنة ١٩٩٢م.
١٣- بقشي، عبد القادر، التناص في الخطاب النقدي البلاغي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، (ط١)، سنة ٢٠٠١م.
١٤- الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط١)، سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
١٥- أوشان، علي آيت، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء – المغرب، (ط١)، سنة ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ.
١٦- الجندي، علي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، دار الفكر العر بي، القاهرة – مصر، بدون تاريخ.
١٧- أوغليسي، يوسف، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، رابطة الإبداع والثقافة، الجزائر، سنة ٢٠٠٠م.
١٨- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح لأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، طبعة دار الفكر، دمشق، (ط١)، سنة ١٩٨٧م.
١٩- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، عبدالقاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٠- فولفجانج، هاينه، وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، (ط١)، سنة ١٤١٩هـ.
٢٠- فيود، بسيوني عبد الفتّاح، علم البديع- دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة، (ط٢)، سنة ١٤١٨ه - ١٩٩٨م.
٢١- أمسترونغ، بول، القراءات المتصارعة، التنوع والمصداقية في التأويل، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠٩م.

٢٢- فولفغانغ، أيزر، فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ترجمة: حميد لحمداني، الجيلاني الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس-المغرب، (ط١)، سنة ١٩٩٥م.

٢٣- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٤- القالي، أبو علي إسماعيل البغدادي، كتاب ذيل الأمالي والنّوادر، دار الكتب العلميّة، بيروت، بدون تاريخ.

٢٥- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

٢٦- ديب، محمد أحمد قاسم ومحيي الدين، كتاب علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان، (ط١)، سنة ٢٠٠٣م.

٢٧- الأشنانداني، أبو عثمان سعيد هاون، كتاب معاني الشعر، دار الكتب العلميّة، بيروت، (ط١)، سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٨- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ.

٢٩- لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادة، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، (ط١)، سنة ١٩٨٧م.

٣٠- ابن الأثير، ضياء الدّين، المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، طبعة دار نّهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

٣١- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطورها، طبعة المجمع العلمي العراقي، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٢- موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، نخبة من العلماء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة-مصر، إشراف محمد حمدي زقزوق، سنة ٢٠٠٣م- ١٤٢٤هـ.

٣٣- عزّام، محمد، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق - سوريا، سنة ٢٠٠١م.

٣٤- أبو هيف، عبد الله، النص المترجم والمنهج، نظرية التلقّي أنموذجاً، مجلّة الآداب العالمية، العدد: ١٤٢، سنة ٢٠١٠م.
٣٥- دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة – مصر، (ط١)، سنة ١٩٩٨م.
٣٦- حسين، حمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، (ط١)، سنة ٢٠٠٧م.
٣٧- ك. م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين (١)، ترجمة: محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، سنة ١٩٩٦م.
٣٨- ريكور، بول، نظرية التأويل والخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء، (ط١)، سنة ٢٠٠٣م.
٣٩- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسن نور الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، بدون تاريخ.
٤٠- أيزر، فولفغانغ، وضعية القارئ، الفن الجزئي والتأويل الكلّي، دراسات سال، العدد ٧٠.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٢٩٩
٢-	Abstract	٣٠٠
٣-	مُقَدِّمَة	٣٠١
٤-	تَمْهِيد	٣٠٤
٥-	مفهوم الرسائل المعمّاة:	٣٠٤
٦-	الوظائف البلاغيّة في الرسائل المُعمَّاة:	٣٠٥
٧-	دور منشئ الرسالة المعمَّاة:	٣٠٦
٨-	دور المتلقّي المؤوِّل للرّسالة المُعمَّاة:	٣٠٧
٩-	دور الخيال في تشكيل المعنى في الرّسائل المُعمَّاة:	٣٠٩
١٠-	دور الموروث الثقافي في تأويل الرسالة المُعمَّاة:	٣١٢
١١-	المبحث الأول: عناصر التعمية	٣١٤
١٢-	١- النَّص:	٣١٤
١٣-	٢- السِّياق:	٣١٧
١٤-	٣،٤- التأويل والمؤولات:	٣١٩
١٥-	٥- المؤوّل:	٣٢٠
١٦-	المبحث الثاني: الدراسة التطبيقيّة	٣٣٣
١٧-	خاتمة	٣٤٦
١٨-	المراجع	٣٤٨
١٩-	فهرس الموضوعات	٣٥٢